جميل المصري

السراي

مجموعة قصص

obeikandl.com

جميل العمري

السراب

مجموعة قصص

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

الراعية

يا رمز جبريل في الدنيا وعائشة
بين الانام بقلبٍ ملؤه جمر
ودعت دنياك كالنساك راغبة
عن الوجود وعيش كل شر !
ودعت أحلامها في غير ما أسف
ماذا دهاك ؟ ألا أمر له سر ؟
كيف ارتضيت حياة الفقر هانئة ؟
وكيف أغراك ذاك المهمه الوعر ؟
هل المراعي التي طابت مغارسها
سعى اليك بها الايناس والبشر ؟
أتسمعين ثغاء في جوانبها
أم تسمعين غناء ، بعضه سحر ؟

obeikandl.com

ومن عجائب ما شاهدت راعية

تقسو عليها الليالي .. وهي تفترا

أتلك راعية في القفر ضاربة

أم روضة رف فيها الزهر والنور

قد لفها النور في أبهى غلائله

وزانها المفريان .. النبل والطهر

* * *

يا ربة الغنمات البيض طالعة

بين المروج كما قد يطلع الفجر

دنياك ، دنياك ما أندى مخاضرها

وما أحب رباها ، إنها شمر !

كأنما أنت إذ تبدين عاطرة

روض تنفس في أنحائه الزهر

* * *

يا ربة الغنمات البيض تكلؤها

عين السماء ويزكو عندها البر

قفر حياتك لكن حين ألمسها
يكاد ينشق روضاً ذلك القفر
وحيدة أنت في دنياك راضية
بما تجيء به الأقدار والدهر
يا حبذا القفر دهراً للتي سئمت
كل الأباطيل ممن ودهم غدر !

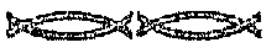

obeikandl.com

obeikandl.com

همسات عابرة

يظن البعض أنى أبث آرائى في خفة الطائر على ضوء شاعريتى وراء كل خيال يتراءى لى من خلف الغيب المجهول .

وفي الواقع إن كل ما أكتبه أعتقد أنه حقيقة أكيدة . تلمستها وأحسست بها عن طريق أو طريق معارفى وأقاربي من الجنسين . فاذا اتهمني البعض بالمبالغة في الخيال والحس . فلأنه لا يعرف الحياة التي عشت فيها أنا أو لمحتها عن كثب أحيانا، تجوب فيها أنفاس الرجال والنساء من كل لون ومن كل بيئة .

ولست من الغرور بحيث أزعم انني بلغت مرتبة ممتازة من الادراك والمعرفة . ولكنني أحاول دائماً أن أتعرف الحقيقة الكامنة في قلب كل مرئى وسيان عندى جذب الكائن قلبى أو عقلى لانى استخدمهما معا في تشريح كل مايقع تحت ناظري أو ما يبلغ مسمعى .

فاذا أحسست أن الشيء اجتاز جنبات نفسى وأن الطبيعة

أعارته أصابعها الخفية ليلعب بها على اوتار القلب . أخذتني غفوة أشبه بالحلم فآوي الى صومعتي منفردة بمشاعري ومداركي في ذلك التيه اللامرئي الذي يسميه الناس خيالا، وأسميه أنا سلم المعرفة، حتى اذا انبهى ناقوس الحياة . بدأت أستعيد الصور التي مرت أمام ناظري مصغية الي الهاتف الخفي الذي يلقي على عقلي دروس الحكمة في غير مواربة ، وكالطفلة الساذجة المتطلعة الى كل مجهول استمع اليه وأتأمل مشاهد الواقع الجميل الذي يرسمه بأصابعه النارية أمامي .

فاذا استوعب عقلي ماسمعه وجاوب قلبي مابلغه بدأت أرسمه بقلمي في غير وشي ولازينة .

ولولا اعتقادي بأن ما أصوره حقيقة راسخة لما استطعت مطلقاً أن أكتب حرفاً واحداً .لان تصوير الحقيقة أيسر منالا من رسم الخيال، وقد يتنافر الامر مع نزعتي الخيالية الوثابة ، ولكنني أتخذ الخيال كفلالة ألف بها الحقيقة الرهيبة لتكسبها روعة وجمالا ولتملك حس القارى في هوادة ولين .

واذن فانا اتخيل لأكسب الحقيقة جو الاحتمال، ولكني أنقل

للناس صور الحقائق بأمانة ،وصدق، والرغبة في بسط الحقيقة واضحة تقتضي الاعتماد علي البساطة، لذا أحرص عليها سليمة من عبث الخيال وظله لتبدو فى جلاء وصفاء .

والحق انى أبذل جهداً كبيراً في الاهتداء الي أقوم سبيل في الحياة، وطالما يعيينى الجد ويخونى التوفيق !؟

كل سبيل توهمت أنه المعبر البالغ للغاية يتعرج بعد شوط، ينثني ويدور ، وتستقيم ليتكسر ثم يتشعب في وجه السارى فاذا النهاية كالافق الخادع .

كذلك الناس ...

أتفرس في الوجوه فألفاها مرايا كدرة لاتظهر الظلال ، وأتسرب من العيون الى أعماق الصدور فأتخبط ضالة في الغياهب، لانها خرائب، وأتوه فى ظلمات الضمائر لانها مغاور .

فارتد فى جذع ارتداد الضال .

* * *

ان ما أكتبه هو صورة مافي ذهنى وصيغة صحيحة لما في قرارة نفسي وشبه تام لضميري فأنشر رأيى غير حافلة بنوع أثره

في الغير ويستوى عندى الرضا عنه أو النفور منه .

الرأى كالشمس المشرقة تنير الكون ولكنها فضاحة، وكالصاعقة تنقض ولكنها تسحق وتحرق.

الصراحة حلاوة ومرارة ، والناس شأنهم فالحق عاجز عن إرضاء من الف المداجاة والكذب والتغرير .

أعرف أذهانا خصبة عامرة بالمعرفة ولكنها كنوز محبوسة خشية من لوم اللائم أو رهبة من غضب الحاكم .

وحبس الرأى فيه اختناق بل هو الانتحار البطيء (باسفكسيا) الجبن .

ولي في الحياة أمل، لهذا لا أختنق وأنشر رأيي في غير تهيب.

لعل نفسي عامرة بالتفاؤل المطلق لانها تحدثني بحمل المشعل أمام الجماعة الناهضة الى طريق الخير.

ومن المحقق أني ضعيفة والمهمة شاقة عنيفة ، ولكن سمو الغاية يغرى ونزاهة القصد تقوي الرغبة في المغامرة .

هل أفلح ؟ ... لم لا ...

لم لا أكون قطرة من مزن الخير .. ؟

لم لا أتقدم الصفوف للتنشيط ثم أترك لغيري تعبيد السبيل والوصول الي الهدف ؟ ..

لم لا أصيح .. فيساعدني الصدي على نشر الدعوة في قصف كالرعد فيبلغ الى الآذان الصماء صيحة مجلجلة والى أعماق الضمائر هزات عنيفة .. ؟

إلى الميدان :

فالغاية سامية ، والقصد نبيل ، والعمر قصير.

* * *

عند ما قدمت «الاميرة» للقارىء جعلتها تقدم نفسها دون أن الفت نظر القارىء اليها . لعلمي أنها صادقة في تعبيراتها صريحة في كل ما تبديه .

وأنا لا أتعمد أن أقدم هذه الاقاصيص الى القراء بدعاية من المنطق، انما أدع الخواطر ترسم صور الحياة في غير كلفة لتبلغ ذهن القارىء في غير عناء .

والمحقق الذي يقرر رأيه ثم يبحث عن الادلة لتدعيم هذا الرأي يكون تصرفه واضح الخطأ فكذلك الكاتب الذي يبتدىء عمله بوضع

نظريته ثم يتخيل وقائع « موضوعه » يسلسلها في صورة قصة لتؤيد حوادثها رأيه ولتثبت نتائجها نظريته .

أما الذي ينشد السلامة من الخطأ في المقدمات والنتائج فمحتوم عليه الانسياق مع الوقائع الصحيحة ليكون رأيه وليستنتج العبرة أو الحكمة.

والمعروف ان أكثرية قراء القصص ليس لهم الصبر على دقة البحث والفحص لتمييز الخطأ من الصواب ، وهذا الفريق يدفعه الكاتب التاجر الي السبيل الذي رسمه وينتهي به الى التسليم بصحة رأيه الخاطيء .

أما أكثرية الذين لهم الكفاية من المعرفة فقد الفوا المطالعة في غير فحص بسبب الكسل عن ارسال العقل للكد في البحث ، يطالعون تصفحاً للتسلي بحوادث القصة.

وهذا التراخي يمكن الكاتب الضال من الاستتار ويضمن له النجاح فيزيد وثوقه في رأيه وفي منطقه فيضل معه القراء

والبحث في أحوال النفس وعن أنواع المؤثرات الطارئة فيها بحث تجب العناية به من أهل المعرفة عنايتهم بشتى شئون الحياة

الاجتماعية والاقتصادية، فكلها لازمة وكل ناحية منها متممة للبقية. وقلب الانسان ناحية غامضة لان العاطفة تتأثر بصورة غير منظمة ولانها تدأب على الوثب في صمت بتأثير الغريزة العمياء فيندفع الانسان الي تصرفات عملية هى التى نراها ونلمس نتائجها.

والقصة التحليلية هي التى تحاول اثارة تلك الناحية الغامضة مستعينة على البحث بعلم النفس فترد الاسباب الى المسببات ثم تشرح الغامض بالتعليل العلمى .

والتصور هو الاثر الواضح الذي يهدى الى نوع المؤثر النفسى في العاطفة وسبب نشاطها وناحية اتجاهها ثم الغاية التى تثب اليها .

فاذا كان البحث متجها الى الوجهة الصحيحة يكشف مصدر التصرف والباعث عليه وصورة النفس ويرشد الى روح الغريزة ارشاداً يمكن من الاصابة في تشخيص المرض فتتيسر معالجته .

* * *

ومن المسلم به أن الكاتب يقع كغيره تحت المؤثرات في النفس أو العقل حيث تطغي قوتها عليه فى حياته الخاصة وفي تصرفاته ، ويندر وجود الكاتب الذي يسلم من تلك القوي الطاغية أو يتحصن

من عدوانها ليكون تفكيره وبحثه في حرية واستقلال ويكفي ما ينشر للكاتب من آراء ونظريات للتمكن من معرفة نفسيته ونوع غريزته فبينما هو يحاول التحليل بالنقد أو بالتعليق أو بالتعليل اذاهو يكشف في غفلة منه عن نوع فكره ومعدن نفسه .

* * *

والقارىء يعرف أن شوط الحياة كله دراسة لمن يريد الانتفاع من التجارب، والمطالعة تعليم لمن يحاول البحث والمقارنة والاستنتاج، وكل مطالعة بدون فهم وادراك وفحص مطالعة عقيمة ضائعة ، فان من يبحث يجد ، أما الاعتماد على الصدفة أو على حسن الظن فانه الكسل والاهمال فلا تكون غرابة اذا قضى الكسول كل حياته في الانتظار ثم التذمر من سوء الحظ أو من الحرمان .

لولا البحث مابلغ العالم الى هذه الحضارة ، ولا وصل العلم الى مانرى من المكتشفات والمخترعات التى أفادت البشرية .

والبحث في نواحي النفس المظلمة يفيد العالم ككل بحث علمي اذا كشف عن ناحية من هذه النواحي الخفية المجهولة .

ورجل الاقتصاد الذى يبحث في ناحيته لايفضل عمله عمل كاتب

القصة الذى يبحث فى النفس والعاطفة ، بل عمل الكاتب أدق لانه يبحث عن الحقيقة في الظلام بينما يعمل رجل الاقتصاد فى ضوء البيانات والارقام .

وتصدر تصرفات الناس عن النفس والعاطفة ، فالتوفيق فى كشف هذه الناحية المجهولة يعاون على تنظيم التصرفات فتنتظم الحركات الاجتماعية وتقل مشاكلها .

وإذن فكتابة القصة ليست هنة من الهنات ، ولا هي مجرد رغبة في التسلية وإضاعة الوقت ،فانها عمل شاق له خطره وقيمته ونتائجه .

لازال بين الناس من يستهين بهذا النوع من الانتاج بسبب العجز عن ادراك قيمته الاجتماعية .

ولست أكتب لهذا الفريق ولا آبه لآرائهم فانى كشاعرة مفكرة تقاضيت حقي كاملا بما نعمت به من متع التفكير والبحث والمعرفةوالاحساس.

obeikandl.com

الراعية

الرسالة

لم أنم في تلك الليلة تحت تأثير شعور غامض نبه حواسي حتى السحر ، نادتني أمي : « جميله، قد أذن الفجر » .. وكأن جبريل بصوته الملائكي نادانى فصحوت وصليت . . .

ولما تطلعت من النافذة أرقب الحياة وهي تصحو رافعة من على هيكلها النورانى رداء الليل ، أحسست بان أنفاسها اليقظة رفت على فنبهتني وأنعشتني وأشعرتنى بحلاوة الحياة . .

هرولت الي أمي كعادتي مرتمية على صدرها فعانقتنى وقبلتنى وقالت : طابت حياتك

هنا لمحت الحياة تتكلم بلسان أمي فابتسمت ثم بكيت بغير صوت . . .

فعادت تقبلنى ثم نادت أخوي : رفعت ، أنور . . وقامت

اليهما تهزهما وتنبههما الي الصلاة . .

أدي رفعت الصلاة مسرعا وتباطأ أنور ثم صلي ، ما عرفنا الايمان الا بفضل ايحاء أمي وما تذوقنا حلاوة الاطمئنان الا بجهدها .

ودفعتني نشوة السحر الى الخروج لأتنسم عبير البكورشادية باغاني البهجة مستقبلة الشروق مع الطيور

ونيل المنصورة في الصباح الباكر صورة أصيلة للربيع الزاهر، وما كدت ألمح الجزر تنادينى برمالها المستسلمة الوسنانة حتى لبيت النداء . . كأم فتحت ذراعيها وضمتهما علي وحيدتها بحنان يتجلى في رعشة الجسم الهادىء استقبلتني رمال الجزر المذهبة الملساء .

والماء يغمرها من كل الجهات فترفرف بذراعيها لتحميني من الغرق، قصيدة الام ترتسم هنا . .

النيل يحتضن الجزيرة ويحميها من الطوفان لتحرص على النبت والثمار

والجزيرة تحتضنني كأنها تحرص علي حياتى لكي أعيش للغاية

المرسومة لى منذالازل . .

حنان .. حنان .. يتجلى في كل مشهد طبيعى في ذاك الصباح الساحر .

كل شيء أمامى كان يتغني بأفانين أغنيات الحنان .

* * *

تعاليت ياربي ، أى جمال أسبلته على المنصورة !

ذاك نهر النيل يسرى أمامها يحمل سلاف الخلد المشتهي وعلى ضفتيه الاشجار المتلازمة كأنها حراس لا تشكو النصب ولا الضنى ، جل ربى حاميها !

سماء واديها صورة لسجل الأبد بدت حروفه فى شبه ظلاله وأجواء رسمتها ملائكة الفضاء

جل ربى حاميها !

هنا فى هذه الدنيا السحرية الجميلة لمحت الراعية تسير مع قطيعها على الشاطىء البعيد ميممة وجهها شطر الضاحية القريبة تتمشي في هدوء واطمئنان وعلي وجهها لمحات البشر والامان .

راعية في هذا المكان وفى ذاك الوقت الباكر ،

ما أعجب هذا ؟

اتجهت ناحيتها لأتبينها جيدا !

وما كدت أقترب منها حتى تنبهت لوجودي ولاشك أنها كانت في منتهي اليقظة أو لعلها مجموعة من الاعصاب الحساسة لانني كنت حذرة في مسيري .

كانت الشمس قد بدأت تتنفس بحرارة اليقظة فالتهب عرشها وسرت الحرارة فى كل كائن حي ، ولوحت الراعية بعصاها فاتجه القطيع نحو الطريق الذى أشارت اليه كانه يفهم لغتها ومعناها .

اجتازت الشاطىء على عجل ثم سارت فى طريق المزارع متباطئة رويداً حرصاً على راحة القطيع — على ما أظن — لانني لمحتها تنظر اليه في حنان وتمر بيدها البضة فى رفق على ظهر كل حيوان .

وأخيراً استقر بها المقام عند أرض جدباء بها كوخ صغير دخلت اليه بعد ان استلقى القطيم على الارض ثم خرجت وبيدها المغزل وأخذت مكانها بين المرعى مشتغلة بالغزل .

وبعد لحظات قامت في هدوء واتزان وعشت حتى بلغت شجرة الجميز القريبة منها فهزتها حتى تساقط الثمر فالتقطت منه

الطيب وعادت الى مكانها وبدأت تأكله بنهم ثم دخلت الكوخ وغابت.

فتاة جميلة الطلعة وضاحة الجبين ذات شباب غض وحيوية متيقظة لكل نسيم عابر ترعي الغنم وتعيش وحيدة في ذلك الخلاء الموحش!

ما معنى هذا ؟

لم أستطع ادراك هذه الحقيقة الغامضة ودفعني الفضول الى مصاحبتها من بعيد لكي ألاحظها في حذر من غير أن تلحظني على لها سراً يتكشف.

بعد لحظة ، خرجت من كوخها وأخذت مجلسها بين قطيعها واستأنفت الغزل

وطاب لي ان أتسلق شجرة الجميز لأ لتقط بعض الثمر لانني أحسست بالجوع، شعرت به مبكرة لطول المسافة التى قطعتها ، لكننى خفت ان تلمحني وأنا أريد ألا تراني لكي لا تتحفظ فاخترت شجرة بعيدة عنها، وبعد ان تسلقتها جمعت بعض ثمرها في حذر ثم وضعته في قصاصة كانت ملقاة علي الطريق وعدت الى مكانى.

ولما انتهيت من اكل الجميز طوح الهواء بالورقة بعيداً حتى سقطت عليها فتناولتها وراحت تمر بنظرها على سطورها ففهمت أنها تعرف القراءة .

اذن فهي متعلمة أيضاً ، فكيف استطاعت أن تعبر محيط الحياة الزاخر بأمواج النظم والتقاليد المرعية لتعيش في كنف الوحشة الهائلة التي لا حد لها ، وكيف تمكنت من تحطيم اسوار الاوضاع المألوفة لتقيم لنفسها وزنا في مكان لا وزن له ولا قيمة في نظر المجتمع الانساني، ثم كيف تمكنت من مغالبة نزعات شبابها الثائر وأهواء صباها المتأججة وارتضت بحياة التقشف والحرمان !

أتراها عذراء كرهت المدنية اثر غدر حبيب ، أم ارملة لجأت الى هذه الوحدة خوفا من أراجيف أبناء الظنون . أم زوجة خانها الحظ فهربت الى ذلك القفر لتجد العزاء في كنف الخلاء ؟

سواء أكانت هذه أم تلك فهي فتاة غريبة بلا ريب ! اذ كيف يمكن لفتاة ما زالت في ربيع العمر، وهي كما تبدو فطرت على رقة المشاعر وشدة الحساسية، أن تعيش في عالم موحش مليء

بالمخاوف والاوهام .

ثم مالها تجلس في هدوء وطمأنينة كأنها خالية الذهن من كل ما يوجب الفزع والخوف والقلق ، وعلى شفتيها ابتسامة كأنها تعبر عن قلبها الصافي وروحها الهفهاف .

قد تكون ابنة فيلسوف تريد أن تجرب نظرية اكتسبت ايحاءها من أبيها فقدمت رفاهيتها قربانا للمعرفة التي ترجيها .

أو علها شاءت أن تقارن بين حياة وحياة لتدرك ما خفي عنها من حقائق الكون فتكشف للانسانية بعض خفايا الوجود .

وقد تكون عرفت أن الوحشة الهائله والتجرد من المطامع والسكون الرهيب أهون من أباطيل المدنية وأفضل من تهاويل المجموع وأبعد خطراً من مساوىء البشر وألطف من تعسف البيئة وأعدل من ظلم التقاليد .

* * *

ما كاد يبلغ مسمعها تغريد عصافير رفت عليها ثم حلقت بعيداً حتى تهيأت للصلاة ، كأن هذا التغريد أذان الظهر في

ذلك الفضاء الوسيع ، ما رأيت امرأة تصلي عليها مهابة الخشوع ونور الله كهذه الراعية.

كأن ملاكا هبط من عليائه ليطبع على الارض خاتم الصلاة في صورة امرأة مؤمنة عابدة طاهرة نقية ، تطالع الشروق ببسمة صافية ولهمة بادية كأن الشروق البهيج كلمة الامن تنطق بها شفتا هذه الراعية .

فاذا غابت الشمس والتف الكون بدثار الحلم تنفست في هدوء كأن الغروب كلمة العزاء ترسم على صفحة السماء في شبه ظلال ملونة باضواء السحر والجمال ، وعلى جبين هذه الراعية كلمات ملتمعة حروفها من نور وبهاء .

وهي لا تنسى أن تسرى عن نفسها بالغناء فتغني بغير كلام ، كل جانحة فيها تهتز على إيقاع منغم يجاوبه القطيع بالثغاء الهادىء

وهل يطرب القلب ويغنى بغير ايحاء حبيب ؟

لكأن قلبها عامر بالحب الى درجة يسع معها ذلك الخلاء المطلق ، لو ضمت الخلاء بين جوانحها .

لم يخفني المساء ولم ارتعد لاياسي بها واعتزمت أن أقضي

شطراً من الليل حتي أرى ما ذا هى فاعلة فيه — لكنها اختفت داخل الكوخ فاضطررت للعودة اذ بدأت أحس بوحشة المكان.

* * *

قمت من نومى مبكرة ، وفى الواقع لم أنم طوال الليل خوفا من أن تطوينى الغفوة فلا أحس بدنو السحر

وقبل أن يأفل آخر نجم من نجوم السحر كنت قد ارتديت ملابسي وما كاد الفجر يتنفس عن الصبح الوضاح حتى هرولت مسرعة الى حيث التقيت بالراعية في الامس ، ونسيت ما تتطلبه رياضة الصباح من توازن وانسجام فى السير من فرط ما بى من لهفة للقائها .

لم أجدها فخفت أن أكون ضللت الطريق وبعد جهد لمحت كوخها فهرولت اليه . ولكنني لم أرها ولم ألمح أى أثر للقطيع . رحت أعدو هنا وهناك والعشب يحول بينى وبين المرئيات حتى ظننت أنها غيرت مكانها . وبعد تفكير طويل تنبهت الى أن الشمس لم تبزغ بعد ، اذن اما أنها ما زالت نائمة أوهى قد ذهبت الى مكان بعيد لم تعد منه ، وقبل أن أذهب للبحث عنها عن لي أن أتأكد

من خلو الكوخ فذهبت في خفة وحذر حتي بلغت الكوخ ونظرت من ثقب بابه .

عادت الطمأنينة الي لما رأيتها نائمة وقد لمحت طائراً جميلا رف على وجهها في خفة ومر بمنقاره في لطف علي شفتيها ، قبلة ما أعذبها وأنقاها . ثم حوم حواليها فاستيقظت وابتسمت ورفعت اليه ذراعيها ثم ضمتهما الى صدرها كأنها ترد تحيته بالعناق، ثم رفعت رأسها الي السماء لتشكر الله على رعايته ورضاه.

ولما أيقنت أنها خارجة ابتعدت لأختفي في مكانى الظليل .

وبعد لحظة طرق بابها عابر سبيل فمدت اليه يدها بكوب من اللبن شربه ثم ناولته بعض قطع من الزبد فاخذها دون كلام ونظره عالق بها ، ولما ابتعد عنها رفع ذراعيه الي الله قائلا: « اللهم امنحها الصحة والايمان واسبل عليها ستر حمايتك» فشعرت أن ذلك أصدق الدعاء ، وقبل أن يتواري لحقت به واستوقفته ومددت له يدى ببعض النقود فرفض قبولها شاكراً ودعا لي بالخير ثم تابع خطاه . فوسوس في صدرى الشيطان أن أستدرجه وألاطفه لتحقيق غايتى ، فتتبعت الرجل دون تفكير وناديته : « أيها الرجل :

من يقطن في هذا الكوخ » ، فتأملني طويلا وأظنه شاء أن يعرف دخيلة صدري قبل أن يجيبني، ولما اطمأن الي نقاء سريرتي ولعل طابع الصفاء المرتسم على شفتي دائما أفادني قال : « سيدة كريمة تمنح بيمينها ولا تأخذ بيسارها أعني تعمل الخير لغير غاية » فأصابتني هذه الكلمة كالسهم القاتل ودمعت عيناي .

أتراه أفهم ما وراء نفسي . . ليتني ما سألته ليضمني الى فاعتها الخيرة ولما أطرقت لاخفي ألمي ودموعي استطرد الرجل : «جعلها الله موفورة الخير من الصحة والكرامة . هذه المرأة لا تملك غير التطبيع ورغم ذلك تهب الفقراء والمعوزين أمثالي كل ما تملك من بر وحنان » وصمت ملياً ليتنهد ناظراً الى الافق البعيد ثم أردف: «وهناك الاغنياء الموسرون يملكون الملايين ويعز على الغنى منهم أن يصرف المليم في سبيل الله فان بذل بيمينه درهماً أخذ بيساره درهمين »

وتنفس المسكين الصعداء واستطرد . الفقراء وحدهم ياسيدتي هم مرهم جروح البؤساء وهم الذين يخففون مصائب الانسانية بما يملكون من بر وعطف وحنان لا يشوبه الرياء ولا تبعثه الغاية .

أنظري الى هذه المرأة التي تعيش على الخير القليل ترعى أغنامها وتغزل أصوافها وتستخرج الزبد من ألبانها وتفعل ذلك لتمنحه راضية وتهبه طائعة الى كل فقير جائع ومسكين ضال وبئيس حائر ومنكوب شريد، الى كل من أقصته عدالة الحياة المادية عن نعيم الوجود وقذفت به في ثورة الشقاء والتعاسة .

الفقير وحده ياسيدتى هو الذى يعرف الله وهو الذى يفهمه ويحبه ويخافه ومع ذلك تحرمه الحياة الظالمة نعيم الدنيا الذي وهبه الله منحة شاملة للخلائق .

ادخلى المسجد ياسيدتى وانظري عدد الاغنياء والفقراء وقارنى، الفقير يترك عمله وهو في حاجة الى قرش واحد قد يأتيه فى هذه اللحظة ويذهب ليؤدى فريضة الصلاة ، والغنى يأبى أن يترك خزائن ماله أو مكتبه ؟

أرأيت عظيما دخل المسجد اغير أمر جسيم .

كأن المساجد جعلت للفقراء .

الفقير وحده هو الذى يحب الله ويعرفه .

قلت : « ولابد للارض من الفقراء لتظل عامرة بالايمان

فلا تندم على الفقر ما دام قلبك عامراً بالايمان .

وزفر الرجل ثم استطرد : « المال وحده ياسيدتي هو الذي يولد الحقد والضغينة والكراهية

وأنا لا أريد أن أجرد الحياة منه انما أرجو أن تصحبه الرحمة ويلازمه العدل والرفق والشفقة»

وصمت ليجفف مداممه في سكون وخجل .

فالتفت الى الكوخ فراقني منظر الراعية وهي تغزل، فابتسمت قائلة : ما أندي قلب هذه المرأة ، لا تظن أنها فقيرة، أنها بفضائلها الانسانية النبيلة أغني من أغنياء العالمين . انها تملك ما هو أعز من كنوز الارض تملك حريتها كاملة ، موفورة الحظ من الصحة والسعادة وراحة الضمير . حسبها راحة نفسها وطمأنينة روحها، وتمنيت في هذه اللحظة أن أكون مثلها !

وأخيراً قلت : يخيل الي أنها ليست من سكان هذا المكان

فاقترب مني مطمئناً الي كأنه يسر الي امرأ وقال: لقد اخبرني شيخ عجوز كان يمر عليها صباح كل يوم ليأخذ حظه من هباتها أنها قصت عليه حكايتها يوم كلفته بالذهاب الى بلدتها ليستعلم عن

بعد فرارها ، قال :

انها من اسرة عريقة وقد نشأت في بيئتها مدللة مكفولة برعاية والديها حتي توفيت امها وهي لم تبلغ التاسعة من عمرها وتزوج والدها بامرأة أنس اليها واعتقد انها ستكون كأم حانية عليها. لكن الفريزة لا تقاوم مادام الشر يغذيها من معين الانانية لذا لم تستطع الزوجة أن تغالب حقدها وتحب ابنة زوجها ولم يستطع الاب ان يوفق بين الزوجة والابنة وكان الاب مصابا بضعف الارادة فاستسلم الى الزوجة واستخدمت الزوجة هذا الحب لتعذيب الابنة البريئة فبدلت نعيمها جحيما وسعادتها بؤسا وبسماتها دموعا وأسلمتها الى اليأس القاتل

إن صورة الفتاة تذكرها بشبح الشريكة الميتة ، وفى كل مساء تهمس فى اذن الزوج « ابنتك تعاكس ابن الجيران » وتارة تقول : « ابنتك تخرج فى الطريق متهتكة وقد تعقبها شاب الى الدار حتى تهامس الجيران »، وهكذا في كل ليله تنفث فى قلب الوالد سم حقدها ومقتها ، فيتأثر الوالد ولا يحكم عقله وقلبه بل يذيق الصغيرة مر العذاب.

وأخيراً شاءت أن تستريح منها فراحت تبحث لها عن زوج كيفما كان حتي وفقت إلي رجل لا خلاق له ومهدت السبيل إلى زواجهما بأقصى سرعة

صعب على الفتاة ان تقضي شطر حياتها الاولى معذبة وشطرها الثانى تعيسة شقية فخرجت هاربة الى بعض أقاربها في بلد بعيد فاستقبلت بالبشر والترحيب ، وبعد أيام شاء قريبها ان يستغل شبابها وقوتها فى عمل منتج بدعوى أنه يجب ان توفر لها مالا خاصاً فوافقت الفتاة ، ولم تكد تقبض المرتب بعد أن اشتغلت في مشغل للحياكة حتى بدأ يطالبها بتكاليف حياتها، فلم تمانع وراحت تدفع له مرتب كل شهر دون تذمر أو تململ . فلم يقنع وراح يساوم الرجال عليها .

بعد هذا بأن يزوجه إياها ويظل يطالبه بالنفقات حتى يسأم الاخير فينسحب او يعتذر هو بدعوى ان والدها سيزوجها بقريب ، وهكذا خسرت الفتاة سمعتها وهى بريئة وراحت تلوكها الألسن وهي شريفة !

ثم صعب عليها ان تكون مضغة في الافواه ورأت الحياة تزداد

تجهما وشروراً ووجدت العيش في هذا الجو الخانق موتا بطيئا ورأت كل ما يحوط بها يحمل شارة الظلم والشر ، وكان الألم قد عصر روحها وقوى إيمانها فتركت الحياة الباطلة لطلابها وجاءت إلى حياة الأمن لتعيش بين احضان الطبيعة الهادئة وحيدة لا يؤنسها غير إيمانها بالله

بنت عشها من الأغصان وزينته بالأوراق والأزهار، تقتات بالثمر والنبت وتروى عطشها من ماء النهر النمير ، تعيش مع قطيعها على أجمل صورة يتمناها الانسان لنفسه بين عشيرته وأهله.

وتنحي الرجل عني متمتما :— حماها الله

. . .

لا يمكن أن يشعر الانسان بجمال المكان إلا إذا أحس بخفايا معانيه وجاوب بعواطفه صدي كل أثير فيه ، لذا من العسير أن يفهم غير الراعية جلال المكان الذى تعيش فيه ، هى وحدها التى تحس بأن الحنان يتجسم في كل مظهر وتشعر بنسمات العطف الخالية من شوائب النفاق ترف عليها من كل جانب ، وكأنى بها تشعر بأن قلبها البكر النقى الصافى أسمي من معانى الوجود

أو لعله صورة لذلك الذي يسمونه الخلود .

إنها عند ما ترفع بصرها الى السماء أو تتأمل الطير وهو يحلق في الفضاء أو تصغي الى همهمة الحشرات في الخفاء أو تستمع الى حفيف الأشجار عند دخول المساء أو ترقب الشروق أو تلمح الغروب — كأنها خلقت لتفهم معنى هذا وسر ذاك فترتسم على وجهها ظلال كل معنى ولمحات كل سر .

تتنفس في طلاقة وتمدو في حرية وتتحرك في غير قيد أو حذر دون أن تخشي النظرات الفاسقة أو تخاف مشاكسة أصحاب القلوب المريضة والنفوس السقيمة.

انقطعت عنها لأسباب قاهرة ، وكانت هي وحدها ملء ذهني وخاطري . ولما تخلصت من قيودي جئتها قبيل الغروب وكنت ألفت المكان فلم أعد أخافه كأن حبي لها جعل كل شيء حواليها أحب الأشياء الى نفسي وبعث في قلبي الطمأنينة والهدوء ، جئتها وفي نيتي أن أتعرف إليها مهما كلفني الأمر من تواضع ودهاء وما كدت أقترب من الكوخ حتي لمحت شابا يتمشي في طريقها وبيده كتاب يمر على صفحاته في عجلة بادية ثم يتلفت حواليه في

عن بطيء كأنه يقارن بين لمحات الطبيعة البادية وبين كلمات الكتاب المسطورة وظل كذلك حتى لمح عن بعد الراعية وهي جالسة أمام الكوخ تشتغل في الغزل آناً وتحنو على صغار القطيع أحيانا تهدهده وتناغيه بعواطف الام التي تحبو صغارها أعز ما فى الحياة من بروحنان

لا شك فى أن هذا المشهد أدهش الشاب ، وقد استرعى نظره إذ توقف عن المسير وأخذ يرقبها ثم تابع خطاه بين الاحجام والاقدام

سلطت الشمس أشعتها الذهبية قبل ان تودع الكون علي وجه الراعية ووجه الشاب فاستطعت ان أقرأ خواطر نفسيهما التي كشف عنها الضوء الالهي وأنا مختبئة فى مكانى

هى آمنه مستسلمة ، وهو حائر متسائل . . يظنها همجية مستأنسة أو يحسبها انسية متوحشة لأن وقع خطاه المتردد ينبيء عن نفس خائفة راغبة .

ولكن صورتها الهادئة الوديعة وبسمتها المشرقة النقية والشعاع العلوى الذى أفاضه الله عليها ، كل هذه السمات كقوة جذب تنزلت من فلك سماوى لتجذب ابن الارض ، فتحفز الرجل فى

نشاط وقد وثبت الرغبة من مكمنها فدفعته اليها قفزا علي أنه عاد وتراجع ولعله خجل وخاف ظناً منه أن تقدمه جرما لا تبيحه الرجولة الوقورة وقد تفسره الراعية تفسيراً سيئاً

وعلي ذلك عاد أدراجه مفعم القلب بعاطفتين متناقضتين ، الرغبة في تعرفها تدنيه منها والاعتداد برجولته والخوف منها يقصياه عنها ، وهمس بصوت مسموع كأن نفسه تجسمت رجلا أمامه يماشيه : ما ضرني لو خاطبتها ، ألا يحتمل أن تكون هي صحيفة مجلوة تفتح أمام الذهن أبواب الحقيقة اللامدركة بدل الكتاب المعقد الذي يحتاج لقاموس ، وتوقف عن المسير يرقب الكوخ وكان قد قطع مسافة طويلة دون وعي منه فبدا له الكوخ كشارة معلقة بين الارض والسماء وراعية كنجم بارز وضاء يشير إلى مكان الضوء في الفضاء

وهنا انتابه شعور غامض لا يمكن إدراك كنهه فتوقف مطرقاً ، ثم التفت خلفه يتأمله .. ثم سار بضع خطوات ، ثم تراجع بضع خطوات ثم وقف يرقب الشمس وهي تغرب .. ثم راح يتمشى في هوادة وبطء هامساً بصوت مسموع ـ ياللشيطان ، قد

تكون فى حماية والد او زوج أو شقيق ، اذ لا يمكن مطلقالامرأة حدثة السن ناضرة المحيا أن تعيش وحدها في هذا القفر الموحش ! ثم ضحك ساخرا بغير صوت . واستأنف مسيره ، وفجأة توقف والتفت خلفه ثم عاد ميمماً وجهه شطر الكوخ

وأحست الراعية بوجود غريب فانتفضت وتجهم وجهها الذي اكسبته الشمس حرارة الحياة العليا ونقاء الطهر الصافى وشاع القلق فى كل نواحيها ٠

لا شك أنها تخاف ان يكون نفر من أهلها ،لذاا نتصبت في ذعر وتلفتت في حذر وريبة وبدا لها الخلاء مثل كهف يكاد يبتلعها وتجسم الفزع فى كل مرئي وكل صوت بعد ان كانت كل المشاهد حواليها كأطياف تحبوها بالحب والرعاية وكل الاصوات نغمات موسيقية تبدد وحشة المكان وتملأه أنسا

يالله ٠٠ أى رعب ٠ اي فزع ، أى كارثة ستنزل بها عن طريق ذلك الذي بعثه القدر الغامض !

أحجم الرجل أخيرا وتنحي عن طريق الكوخ وراح يعدو في عجلة كأنه يخاف مطاردة وحش يتعقبه بينا اختفت هي داخل

الكوخ بعد ان استودعت القطيع منامته . واختفى كل معني لامع وعدت من حيث أتيت فلا اليها تحدثت ؟ ولا سر ما وراء الغيب أدركت .

* * *

عدت بعد أيام وقد جلست مليكة السماء على عرشها الذهبي مرسلة أسلاك الحياة الحارة الي الكون النائم ليتيقظ كل حالم .

لمحت الراعية تروض قطيعها بالقرب من كوخها وكانت تتلفت من حين الى حين كأنها علي موعد مع انسان ، لو لم يرتسم الخوف على وجهها لظننتها مترقبة لحبيب ، وما رأيتها شاردة ذاهلة كما رأيتها وقتئذ ، ولما استقر بها المقام أمام كوخها كعادتها سحبت بأطراف أناملها المغزل ، ولكنها لم تشتغل واستقر بصرها علي الافق البعيد في وجوم الحالمين ، وظلت كذلك حتي تنبهت على وقع خطوات « الرجل » الذى اتجه الي ناحيتها فى غير تهيب ووقف أمامها فى تأدب دون ان يترك لها مجالا للاختفاء وبادرها بصوت خشن فيه رنة الصلف والكبرياء : هل أجد عندك ماء ؟

فاسرعت ودخلت الكوخ في خفة الطير الرفيف وقد تورد

وجهها حتى كاد الدم يطفر منه ثم عادت وقدمت له اناء به ماءوهي تقول فى ابتسام : يؤسفنى ان الماء غير مكرر بآلة صناعية ، الا أنه نظيف علي أية حال وهو مكرر بنواة الثمر فذق مياه الزاهدين.

قالت ذلك بلهجة لا تخلو من عطف ظاهر ورقة ساذجة وعذوبة محببة وتحفظ رزين

فتأفف وأبى هازاً رأسه في اشمئزاز قائلا :

لا ضرورة ، لانى مريض والطبيب يحرم على شرب الماء العكر ، شكرا.

قالت : آه . تخاف الميكروب . وابتسمت فى مرارة مردفة: معك الحق ، لان معدة أبناء الرفاهية أضعف من أن تقاوم الطبيعة لتمسكها باهداب الصناعة ، هه . . اليس كذلك ؟

ونظرت اليه متهكمة ثم استطردت :

اذن خذ كوبا من اللبن . وأسرعت الي داخل الكوخ فلم يتكلم ولعله بهت من حلاوتها الساحرة وصراحتها الطليقة ولما قدمت له الكوب تناوله منها شاكراً محملقا فيها ليفسر لغزها من عينيها ثم أرخى جفونه ومد يده اليها ببعض دريهمات

فابتسمت في لطف ووداعة قائلة في تعفف وأباء :

المال لطلاب الحياة ولست منهم

قال في جد وأنفة : ولكن ذلك حقك ؟

قالت في جد ورصانة : احتفظ به وقدمه لسائل محروم يمر بك في الطريق أو اعتبر الابن تحية هذا القطيع لك لزيارة واديه

قال : اذن نضع النقود هنا على الارض ولتكن من حظ من يمر من العابرين !

فطت شفتيها وهزت كتفيها ولم تتكلم بمعنى : انت حر

وصافحها وسار في طريقه في صمت ورزانة

ظلت في مكانها تتابعه بنظراتها الساهمة ويدها ما زالت ممدودة كأنها تحس بيده باقية تصافحها .

لأول مرة في تاريخ حياتها في هذا المكان يواجهها رجل مؤدب ولاول مرة في تاريخ حياتها يخاطبها رجل في تأدب ووقار بلا غاية . .

ما أسمى النبل والمروءة منهما تتمخض القوة المعنوية التي تصون الروح وتبعث الامل

كيف يقضي السجين أول ساعة ينطلق فيها من السجن

لقد كانت حرة ـ تشعر بذلك ـ لكنها كانت تعتقد إنها اشترت هذه الحرية بحياتها كلها ، وهي طاهرة . ولكنها تعتقد أنها وحدها خالقة هذا الطهر وحارسته . . فما لها الآن تشعر بأن روحها أقدر علي اجتياز الآفاق عن ذي قبل ، وما لها تحس بأن طهرها أعمق وأبلغ من طهرها في أي ساعة مضت

لقد كانت تعتقد أنه لا يمكن أن يجتمع رجل وامرأة في كنف الطهر ولا يمكن أن يخاطب الرجل المرأة باسلوب الروح وها هي اجتمعت بالرجل في جو الطهر وحادثها واستمع اليها بصوت الصدق ، اذن في الحياة أيضاً رجل طاهر وصدق مكفول

ومرت الايام تباعا والرجل يأتي في مواعيد مختلفة يحوم بعيدا كالطائر قانعاً بنظرة خاطفة يلقيها عليها ثم يختفي في قلب الخلاء كما يتلاشي الامل الحلو الوضاء وهي ترقبه في لهفة مهيئة له كوب اللبن . . ولكن عبثاً ، وقف القدر بينهما كحاجز لا يمكن اجتيازه . .

كانت صورتها الساهمة الواجمة تبعث الشجن في القلب الضاحك

اندفع الروح الى الروح وحن القلب الى القلب وتوثبت العاطفة لتعانق العاطفة في غفلة العقل الرزين ، فهل تراها آمنت بأنها أحبت ذلك الرجل ؟

انها تشك ، وان كانت لا تجزم ايضاً بأنها نسيته .

منهج حياتها لم يتبدل وعطفها على القطيع لم ينقص بل زاد ودأبها على العمل المتواصل لم يعتوره خمول أو ركود ، وفي كل صباح تغسل الكوب بعناية وتملأه باللبن ثم تحتفظ به بالقرب منها وتجلس امام كوخها تتلهى بغزلها ناظرة الي الطريق الذى جاء منه منذ أيام .

اذن هي ذرة ضائعة في أفق الحب اللامحدود ، إما ان تذروها الرياح أو تستقر علي زهر عبق يفوح بالشذى المعطر .

وأخيرا على غير ارتقاب جاءها يطلب لبنا . . وكانت في ذاك اليوم غير متأهبة للقياه أو لعلها تناسته .لأنها ارتجفت واضطربت وغابت في الكوخ ثم عادت تحمل اليه اللبن في استحياء لأن كميته قليلة

فأدرك الرجل بفطرته ان عقلها نسج خيوط التناسي ليلقي علي

قلبها ستار النفوة الكبرى فقال :

أخشى ان يكون هذا نصيبك .

فقالت في لطف : أبداً . انما المقدار قليل اذ لم يكن في حسباني أنك حاضر . . وتلعثمت وأطرقت .

فابتسم الرجل واتجه نحو القطيع يداعبه ثم اقترب منها ونظر اليها في سكون أروع من يقظة الاغراء وقال : ما الذى جاء بك الي هذه البقاع الجرداء وأنت صبية حسناء ؟

فمالت برأسها الى الامام في وجوم محملقة في القطيع الذى انقطع ثغاؤه كأنه يتأملهما ويستمع اليهما

ثم قالت : ما الذى نجنيه من حياة المدنية وضجيجها ؟ ما الذي نجنيه من أباطيل الوجود ؟ لا شيء بالتأكيد ، اذن خير لنا أن نفكر على قدر عقولنا في حياة تكفل لنا بقدر المستطاع الأمن وراحة الضمير .

فضحك الرجل قائلا : واذا كان جميع الناس على هذا الطراز (طرازك التقشفي) فما الذي تجنيه الانسانية ايضاً ؟

قالت : على الاقل ، تخلو من التنابذ والتنافر فترتدع الخلائق

عن الخصام والتقاتل !

فضحك طويلا ضحكه تشبه نغم القدر الساخر منها قائلا : وهل تظنين امتناعك عن مشاركة الناس أوضاعهم ورعاية تقاليدهم ومشاركة وجدانهم يغير مجري الحياة ؟

فقاطعته : طبعاً لا . انما يسعدني أنا ويطمئنني

قال : اذن فأنت تلبسين مسوح الزهد إمعانا في الانانية

قالت : وهل يمكن أن يتحرر الانسان من الانانية وهي من الغرائز الثابتة فيه . أبداً ، انما يمكن تحديد الانانية وتوجيهها نحو النور بدل أن تغمرنا في الظلام ، فهناك فارق كبير بين انسان يقتل انسانا ليسعد نفسه وبين آخر يجلب لنفسه الخير ليتمتع كما يحلو له دون أن يؤذي غيره ولا يكون كذلك الظالم الذي يحل لنفسه الحرام ويحرم على الضعيف الحلال لانه علي الطغيان قادر ، ولكي لا يقاسمه بعض متع الحياة . فينتقص حظه

فحملق فيها مشدوها وقد بدأ يتكشف دخيلة صدرها البعيد الغور ، وتمتم : هيه وأخيراً

قالت : سأعيش هنا حتى نهاية أيامي

قال : ومع من تعيشين ؟

قالت : وحدي

فصمت قائلا : وحدك ، وأين أهلك ؟

فأطرقت لتخفي مداممها وغمغمت : لم يبق لى في الحياة أي قلب حان يهمه أمرى ويعني بشأنى

فتألم وأحس بالعطف النبيل يجتاز قلبه فى سرعة أخف من الاثير ولم يشأ أن يتحدث في هذا الشأن لكي لا يفتح جرحها الدامى ويبعث في نفسها الالم والضني بعد سكونهما وفهم من لهجة أساها ودموعها أنها يتيمة وحيدة . واغتصب بسمة مريرة قائلا : عزاؤك في القطيع جميل ! لكن ألا تشعرين بوحشة الوحدة ؟

قالت : قلبى عامر.

قال : حسن.

قالت بصوت أشبه بنغمات حفيف الشجر عند ما يداعبه النسيم وقت السحر ، فيه رعشة وفيه يقظة تحمل نفحات الحياة فى استحياء : بالحب

فدهش وحملق فيها قائلا : وأين ذاك الحبيب

قالت : معى

قال : ولكنى لم أره ؟ لقد جئت هنا كثيرا

قالت : يخيل الى أنك تتغابى لتستدرجنى ؟

وتلفت الرجل يمنة ويسرة كأنه يفتش عن الحبيب المعنى الا أنها لم تدعه فى حيرته اذ قالت :

أيمكنك أن ترى الله ؟ انه هو حبيبى ومن أجله جئت هنا وبه أقنع بالحياة على صورتها الراهنة المتواضعة، وعلى نوره أرى العراء بريقا والوحشة أنساً وبهجة ثم أطرقت برأسها وقد تندت عيناها بالدموع .

قال — وقد ملكته عاطفة مبهجة — قد يكون ذلك صحيحاً ولكن لا بد لك من تحديد هذا الحب أو تركيزه

فلم تفهم ما يعنيه وضغطت على شفتها السفلي ناظرة اليه فى أسف بمعنى انها حزينة لعدم تفهمه نفسيتها ثم أردفت لتزيده ايضاحا انى أحب كل كائن لأنى أرى فيه سمة من سمات الله وأدرك منه معنى من معانيه الجليله.

ثم نظرت بعيداً كأنها تستلهم السماء وأعقبت :

أحب كل الكائنات لأنها تكون في مجموعها القوة الالهية اللامدركة . كانت تتحدث وكل خالجة فيها تعبر بوضوح عن صدق ايمانها . وكان في التماع عينيها واختلاج شفتيها معنى صريح لعواطفها الصادقة وصمتت لتترك دموعها تتمم الكلام

فتمتم الرجل بعد طول اغراق بلهجة المريب:

أعتقد أن الحرمان هو الذى دفعك الي هذا الايمان

ثم دار بنظره حواليه وعاد يحدق فيها قائلا :

أصدقيني ألا تشعرين في أعماق نفسك بحاجتك الى الف مجهول ؟

قالت : لا والله

وكانت نظرتها كافية لذلك التوكيد لو اقتصرت عليها

ثم أردفت :

في أعماق نفسي حلاوة أعذب من الطهر وأنقي من الصفاء وبقدر حرماني من الناس اتصل بالله وهو الذي يملأ قلبى وكيانى بنوره المقدس وحبه الجليل فما عساى أرجو ؟ لا شيء بالتأكيد

قال : ولكنك انسان لك غرائزك ونزعاتك .

قالت : ماتت هذه الغرائز واختفت تلك النزعات يوم ودعت الحياة غير آسفة . ان الانسان لا يطلب الطعام ولا يسعى اليه الا اذا جاع أما ومعدته عامرة بالغذاء فهو دائب على التفكير في شيء آخر وأنا كما قلت لك قلبي عامر بالايمان، وكياني مغمور بالحس الروحي الذي يبعث في نفسي قوة أعذب من أي شهوة عارضة . لست في حاجة الى الحب حتي أنشده . ولست في حاجة الي الانس حتي ارتجيه . .

وهنا أحس الرجل أن كلماتها بلغت شغاف قلبه وأن ذلك المعين الحلو سكب في أعماقه خلاصة السلاف المشتهي .

وعادت تقول : اسمع .. لقد تذوقت كأس المرارة حتى الثمالة وكنت أستشف السم في شراب ممسول تقدمه الى المدنية الزائفة، يوم كان يحاول أن يبتاع الرجل قلبي بكلمة أو يجذبني اليه بفعل .. ذقت المر وتلمست العذاب واحترقت عواطفي بنار الجمود آنا والظلم احيانا ، وقبل ان يغمرني الطوفان . . قبل ان أفقد قوتي وشجاعتي . . وقبل أن يموت قلبي وتضل روحي ويضعف

إياني .. هربت

فقاطعها : كالجندي المخذول في الميدان يهرب من الضعف ولو قاتل حتى النهاية لمات شهيداً أو عاش بطلا

فضحكت قائلة : أيقدم عنقه للسلاح ويقول هذا هو الجهاد ، لا .. ليهرب بقوته كي يحارب عن طريق آخر . ليصرخ بصوت ملجلجل ليبث القوة في كل خامد

على ان المرأة يا سيدي لا يشفع لها في الحياة غير قوتها ، لو انني استسلمت حتى النهاية لقالوا امرأة ساقطة ، ولا يفكر أي انسان في سر هذا السقوط ومن الذي حفر الهوة .. اسكت ، اسكت .. هناك الضلال . هناك حرب طاغية بين الشهوات والضمائر هناك تقاتل بين الأمن والخصام ، ولكن بدون سلاح ، بقوة خفية يعينها الشيطان بأسلحته اللامرئية

وصمت الرجل لا عن جمود وبرود بل عن خوف وتردد . . سكت الرجل لأن العاطفة الجامحة ثارت فود لو يضمها الى صدره الى الأبد ، وأخيراً غمغم بصوت خفيض .. ما أنبل قلبك !!

لكن أيمكن ان يظل هذا القلب هكذا ساميا مجنحا ..

وانسحب بعد أن صافحها فى خشوع أقرب الي العبادة، ملي القلب بالاحساس العميق ، وقد تركها مغمورة بشعورها المجهول وقلقها الرهيب

* * *

مرت الأيام تباعا وهى تتجنبه بقدر ما تتمناه وقد أدرك من المرات الذى لقيها فيها أنه أحبها حباً جامحاً مشبوباً وكلما هم بمصارحتها تحداه طهرها فى صمت

أنها فتاة فقيرة كما يعتقد ، وهو رجل غني وجيه ، فكيف يجتمعان ؟ ؟

لقد أحبها ، فهل الحب قادر علي محاربة التقاليد والاوضاع . هل يستطيع أن يتزوجها ويفاخر بهذا الزواج ؟ أيستطيع أن يقنع والده العظيم بأنه لم يقترف اثماً بهذا الزواج ؟ ؟

وفكر الرجل طويلا وأخيراً ظن أنه فى مقدوره ان يجمع بينها وبين احترام التقاليد المرعية فليتزوجها خفية ليسعد قلبه وليرضى والده بما يرضيه ، وحيال هذا الخاطر راح يفكر بعقل الفيلسوف ويحلل قضية الحرب العنيفة بين الفضيلة والرذيلة وظهور

هذه بلباس تلك وتلك برداء هذه حتى لم يعد في الامكان التفرقة بين هذه وتلك .

الصدق فضيلة

الكذب رذيلة

اذا متى نفهم حقيقة الصدق ، ومتى نعرف خفايا الكذب متي ؟ . . متي ؟ ؟ هذه المشكلة التى لن تحل أبداً الا بفناء العالم

انه صادق فى حبها ولكنه لا يستطيع أن يضمها اليه فلابد اذن من الكذب ، لكى لا يفقدها الى النهاية . اذا قال لها أحبك فمعنى ذلك أنه لا بد أن يقنع بها واذا قال ها أنا موثوق بقيود التقاليد فمعني ذلك أنه لا يحبها . . أى معضلة ؟ ؟ أي معضلة ؟ ؟

وكلما حاول أن يتحدث اليها في صراحة يشعر بان شبحاً مخيفاً يهدده وينذره فيصمت ويقنع بالحديث العابر التافه

ولقد استطاعت الراعية أن تفهم في صمت ما يعانيه الرجل من كبت وجهد وعناء فاشفقت وعطفت عليه . في تحفظ رزين ، أيحبها ؟ لا تدرى ! فى عينيه جذوة الحب المتقد ، ولكنه

جامد . بارد صامت ، اذن فهو مشغوف بأحدى عرائس الحضر لا بد . . لا بد . .

وأمام هذا الخاطر تلاشى ما كان في صدرها من أمل بعيد براق كان يلوح لها في أفق الاحلام ملتمعاً ذا قيمة ومعنى ، وقنعت بأن تراه سعيداً ، موفقاً .

ياللشيطان ! كيف يصور لها حلو الاحلام ، ويحاول أن يغريها على التعلق بذلك الانسان ، وعادت تستعيذ وتستعين بالهام الايمان ، حتى ذلك اليوم الذى مر عليها عابر السبيل فوجدها على غير ما عهد واجمة متجهمة مفكرة وكانت في هذه اللحظة فى حاجة ماسة الي الترفيه عن نفسها ففرحت بحضور المسكين وخرجت من جمودها مسبلة عليه ستر حنوها وعطفها ومنحته ما ادخرت له من زبد ولما لمحت غطاء رأسه ممزقا أعطته غطاء من الصوف صنعته بيدها

وفهم المسكين من لهجتها الخافتة المتقطعة أنها مهمومة حزينة فسألها : أراك اليوم يامولاتى شبه حزينة أحدث ما جعل بهجة نفسك تغرب الى حين . . ثم هز رأسه معقباً : لم تخلق بعد بواعث

الشرور التي تبعث في شروق قلبك ضبابا

فتمتمت وهل في الحياة ما يعنيني حتي آبه له ؟ انما يحزنني توجع هذا الصغير ، وأشارت الى صغير من القطيع ، ولست على مداراته قادرة أنظر ألا تراه يتألم كما يتألم الانسان اذا داهمته الحمى أو المرض . ولست أدرى سبب شكايته وباعث مرضه مع انى حريصة جد الحرص على القطيع . وسحبت المسكين من يده وسارت به الى الصغير الشاكى . وراحت تمسح شعره قائلة : قل لى ماذا أصنع . فأخذه منها وفتح فمه فوجد به (شوكة) غرست في فكه . . ولما رفعها بيده استراح الصغير وهدأ ونظر اليه كأنه يشكره ، وانسحب المسكين راجياً لها ولقطيعها كل خير وتركها مستأنسة بذاك الرجاء ! !

ولم يكد طيف المسكين يتوارى وراء الأشجار الكثيفة حتى ظهر الرجل يدنو منها فى عجلة ولما واجهها انتفضت مذعورة إذ لم تكن مترقبة ذاك اللقاء على أنه لم يترك لها فرصة لتبدؤه بالكلام قائلا :

هل اتخذت محرابك مأوى لعشاقك ؟

ثم ضحك متهكما وعلق فيها شذراً مردفاً :

الآن فهمت سر جنوحك للعزلة واتخاذك ذاك المأوى مهرباً من نظم المجتمع التي تحرم الباطل ، وانقطع عن الكلام ليضحك طويلا ثم أردف :

ما أغباني ، كيف ظننتك ملكا ، وكيف توهمت ان المرأة يمكن ان تتحرر من غريزتها قانعة بإيمانها الروحي .. وسكت ليسترد أنفاسه ولعله ترك لها فرصة للكلام فلم تثر ولم تتحرك ولم تبد أي اعتراض بل ابتسمت في هدوء وظلت محتفظة برصانتها ولما أغاظه جمودها قال :—

إلى هذا الحد أنت فاسدة ؟

فرفعت رأسها في أنفة وكبرياء ونظرت اليه في اطمئنان قائلة بصوت خفيض رصين :

وماذا يضيرك ؟

فاشتد غيظه وصرخ في وجهها :

ولماذا خدعتني !؟

فظلت محتفظة بهدوئها وثباتها ورمقته بنظرة ساخرة ثم قالت :

انك لم تخسر أي شيء يا سيدى ولن تعاقب لأنى ، أنا وحدي التى آخذ حظي من الجزاء ، وليكن علي أي صورة. فلوح بيده ، وهز رأسه ثائراً وقد شعر أنه جرح فى كرامته وان هذه الفتاة لعبت بعقله وندم علي محادثتها بعض لحظات والتفكير فيها بعض أيام وتجسمت الصورة التى كانت فى الأمس صغيرة ، حقاً لم تكن الخسارة هائلة لأنها لم تكن الفتاة التي يرتجيها .. ولكنه كان يثق فيها . فما أمر الخيبه في الثقة ، وقال بعد صمت ممض :

أظنك حسبتنى ضريراً لا أبصر وتوغلت في الرذيلة ظناً منك أنه لا يوجد هنا من يكشف أمرك .. ها ها ها ها . أليس كذلك أيتها الزاهدة ؟

هنا لم تستطع علي الاهانة صبراً فقالت بلهجة حادة :

يا هذا ، انك لا تفهمنى ولا يمكن ان تفهمنى أبداً ، فاذهب في طريقك فان الله الذى يعاقب المخطيء لا يترفق بسيء الظن ثم ضحكت متهكمه مردفة :

أنا خدعة كما تقول وأنت حقيقة كما تظن فاذهب في طريق الدنيا التى تحترم الحقائق التى علي شاكلتك . الحقائق التى نسجت

لها الأوهام وشاحاً براقاً يجذب الأبصار وما هي الا ومضات البرق الخاطف تنذر بالرعد والريح العاصف المدمر لكل كائن لم تثبت قدماً ايمانه فيه ، اذهب ياسيدي آمنا وحسبك ، وتنحت عنه ، فغضب وثار جنونه وصرخ :

لن أدعك أكذوبة في قلب ذاك الخلاء تحت حماية الرياء المسبوك بمعدن الدهاء في شبه زهد

ثم تحول ناحية الكوخ وهدم أركانه ونثر محتوياته

فلم تأبه ولم تثر ولم تمنعه وراحت تضحك في طلاقة ثم أشارت الى القطيع بعصاها فالتف حواليها كأنه يحميها من سطوة الرجل الجائر، وسارت في طريقها في دعة ورزانة . فازداد حنقه لعدم اهتمامها ووثب غيظه ليواجهها فلحق بها واستوقفها قائلا ؟

من هذا الرجل ؟

قالت في تؤدة بغير تلعثم : افعل ما تجيزه نفسك الطائشة ولكن لا تتدخل في شؤوني

قال : أنا لا يهمني شؤونك ، انما من واجبي أن أحارب الرذيلة في كل مكان

فضحكت ساخرة منه قائلة : أنت تحارب الرذيلة ، ومن أنت ياسيدى ؟؟ يارب السموات ، أنت القادر تترك الناس تعبث بشرائعك على مسمع منك ، وأبناء الضلال يريدون محاربة الرذيلة ثم تنفست الصعداء وأعقبت : قل لي كيف تحارب الرذيلة وأنت نفسك تحيا بالرذيلة : يا الهي تعاليت وتباركت ، أنت وحدك العليم بخفايا السرائر ؟

فقاطعها : لا تهربي من الجواب وقولي من هذا الرجل ؟

فرفعت وجهها الى الله في توسل وخشوع قائله : يارب امنحني ثقتي بنفسي وصبري حتى النهاية وامنح يا الهي عبدك المخطىء قبساً من نورك ليدرك على ضوئه حقيقة النفوس

قال مستخفاً : بمثل هذه الشعوذة تريدين أن تدافعي عن نفسك !!

وهنا فقدت المرأة صبرها وملكتها كرامتها المهانة فقالت في حدة وتؤدة ، أيها الرجل انك لم تر ما يحلل سوء ظنك ولو لم تكن نفسك موبوءة لما اتهمتني ، لماذا لم تتهم نفسك بالاثم عندما طرقت بابي ومحاولاتك التغرير بي بنظراتك وتنهداتك وكلماتك

في مهارة لتحملني على الاستسلام لك من غير أن تسلم بأنك الراغب

ثم نظرت اليه مشمئزة وتركته في مكانه وتابعت خطاها ولم تكد تتحرك حتى لمحت عابر السبيل يهدو نحوها يجر ساقيه في بطء وجهد وقد أخفى جذعه ووضع يده على قلبه كأنه يعاني الما مميتا فتوقفت عن المسير لما واجهها قائلا ،

سيدتي ، أشعر بألم شديد وأخشى أن يقف قلبي بغتة فاني مصاب به كما أخبرني الاطباء فيما مضى ، ثم ارتمى على الارض في شبه اعياء وقد بلل العرق جبينه والتمعت عيناه

فتألمت الراعية له وعطفت عليه قائلة : قليل من اللبن يعيد اليك عافيتك فلا شك أن ما أصابك من تأثير الجوع أو سوء الهضم ، وحلبت له بعض اللبن وقدمته له

وبعد ان شرب اللبن انتظم قلبه وعاوده نشاطه فشكرها ثم أطرق مفكراً ، ورفع وجهه اليها بعد برهة قائلا بصوت خفيض هادىء :

أصبحت أترقب الموت كل لحظة وأنا لا أخاف الموت هربا من

ملاقاة الله .. ولكنني أخشي ان تفقد الطفلة التي أرعاها القلب الوحيد الذي يحنو عليها ويعيش من أجلها ، ثم عاوده الوجوم فأطرق .. وأخيراً قال :

مولاتى .. تعرفين أنى عابر طريق بائس ، ولكنني فى الواقع ابن امرأة ، افتتن بها وزير عجوز فتزوجها قبل ان تبلغ العشرين من عمرها ، اذ توفي والدى بعد ان وضعتني بشهور فاحتضنتنى جدتي لكي تنعم أمى بأطايب الحياة فى منزل زوجها الجديد ، باعت الابن بالزوج وارتضت الأنانية دينا .. وراحت الأم توهم الناس أنني شقيقها الصغير وأفهمتهم ان الوزير تزوجها بكراً . لم أفكر في هذا الأمر وقتئذ لان جدتي منحتني حنانها شاملا وعطفها كاملا وأولتني حب، الأم وأكثر .. حتي أنى نسيت أمى بها ولم أعد أشعر لها بأى حب وبفضل رعاية جدتي أتممت دراستى حتى النهاية وبدأت أواجه الحياة بعقل الرجل وقلب الانسان،ورحت أهيىء لى مكانا يكفل لي السعادة المرجوة وأصبح لى من أمى أخوات لم أنعم بالحياة معهم .. زرت أمى يوماً في عيد لأقدم لها ولأولادها هدايا العيد وكنت قدبلغت

مأوى محموداً .. وأثناء وجودي دخل الزوج مع بعض الزوار فقدمتني أمي لهم قائلة ... أخي

في هذه اللحظة فقط فهمت كل شيء . أمي تتبرأ مني من أجل المظهر، من أجل الحياة من أجل العظمة المادية ، رباه أي شعور تملكني ، أي حقد ملأ جنبات نفسي ، خرجت أسير في الطرقات كالمخبول ، أردد .. أمي .. أخي .. أمي .. أخي .. أيهما أصدق هل هي أمي أم أنا أخوها .. رباه .. رباه ..

عدت الى منزلي لأستوضح جدتي حقيقة الأمر اذ بدأ الشك يقتلني ، فقد أكون شقيقها حقاً . . .

أريد ان أعرف أن كانت جدتي كذبت علي يوم أفهمتني ان هذه المرأة البعيدة أمي؟ أو انها صادقة وأمي الكاذبة؟

دخلت عليها كالمخبول اناديها فلم اسمع لندائي جواباً .. خرجت الجدة لتطيل من عذاب الشك ، تمشيت في المنزل شارداً واجماً .. أفكر وأتساءل ، وأبكي ، لأول مرة في حياتي بكيت ، بكيت بكاء الرجولة القوية المخذولة !

وفجأة اصطدمت علي غير وعي بجسم ملقي على الأرض ..

من .. آه جدتي نائمة ، أيقظتها في جنون وقد اشتدت لهفتي لتعرف الحقيقة .. فلم تنتبه .. رباه ، رباه .. ماتت جدتي ، ذهب مفتاح السر ، أي هول .. أي مصاب .. أي بكاء يميني على تخفيف بلواي

أبلغت امي أو أختي الخبر ، فجاءت ، ولم أدعها تفلت من يدي بعد دفن الجدة العزيزة قبل أن تصارحني باليقين ، قلت لها: أصدقيني ، هل أنت أمي أو أختي

فابتسمت المرأة كالحية الرقطاء ما أغرب سؤالك يا توفيق

قلت في جد ، أصدقيني قوليها كلمة واحدة ، أمي أو أختي

قالت : طبعاً أمك ، أتشك في ميلادك ، عندك شهادة الميلاد

قلت بصوت المفجوع وقد أصابني السهم في قلبي: كفى ، كفى ! اذن لماذا تحرميني متعة البنوة ، ألم أكن كفئا للانتساب اليك ؟

قالت : لا يا توفيق — وصعب عليها أن تناديني بياولدي ، فحز ذلك في نفسي وآذاني وأثار كامن شجوني وأساي — انما زوجي لا يعرف واذا عرف قد لا يغفر لي كذبي ، واذا عرف أولاده قد يخبرونه .

فوقفت في كبرياء ورمقتها بنظرة شذراء وقهقهت عالياً وقد انتابتني نوبة جنون وقلت : وانا ارفض اخوتك ياهذه ، لان المرأة التي تتبرأ من ولدها لا يأتمنها أخوها

وتركتها وهرولت في الشارع أعدو كالمجنون ، أغمغم : بالمال باعتني فيجب أن أبيعها ، لا أذكر ما ذا حدث لي ! عشت بضع أيام بغير وعى ، ورأيت الحياة تافهة لا قيمة لها

ثورة عنيفة اجتاحت كل أمن وسلام في نفسى ! كرهت العالم كرهت الناس ، واسودت الحياة امام ناظري وأصبحت أنظر الي كل شيء بنظرة مريبة ، أشك فى كل أم وفى كل أب وفى كل أخ

وصمت مليا يغالب أنفاسه ويصارع الموت كأنه يطمع فى الحياة وفتح عينيه وحملق فيها فى هدوء وابتسم ثم غمغم بصوت متقطع غير مسموع :

ظللت كذلك شريداً محموم المخ حتى ذلك اليوم الذى لقيني فيه الشيخ المسكين الذي كنت تمنحينه بعض ما تملكين ، وكنت أعشى هنا هاربا من الناس ومن الضوضاء ومن المدينة ، ومد إلي

يده ليطالبني بدرهم فأبيت ناظرا اليه في تنكر متيخا عنه ، فتلقي المسكين اهانتي بابتسمة فاترة ثم قال :

جرد نفسك من الرجولة لأن المرأة أفضل منك

فبلغت كلماته شغاف قلبي وثرت عليه صارخاً : يا للشيطان ، المرأة ، الضعيفة المسكينة، الكسيرة الجناح ، أنا أتجرد من رجولتي لانها أحسن مني . فقال مؤكداً : أجل وأقسم لك .. ثم أشار الى كوخك مردفا :— هناك المرأة تعلم منها كيف الاحسان

وصمت الجريح مرة أخرى ليعاني سكرة الموت ويغالب النزع الأخير ثم أعقب في شبه همهمة .. لا أذكركم من الايام مر علي... وأنا أحوم حول كوخك من بعيد ، من بعيد ، شاعراً بأن هناك قوة خفية تجذبني اليك كطيف يعيش على الارض مجنحا وتوشجت بيني وبين المسكين معرفة بددت ثورة نفسي وأحالتني الى طفل كالحمل الوديع ومنه عرفت حكايتك

وسكت برهة ثم راح يتمتم في عناء ، أحبتك .. أحبتك ، ثم اقتديت بك وتركت الحياة بأكاذيبها لروادها وطلابها ، ولجأت الي الاستجداء منك لأنعم بحديثك البريء آنا وعطفك

الطاهر أحيانا

وفتح عينيه في بطء ونظر اليها بعينين دامعتين وقد بدأت حركاته تتقبض وتنبسط ثم تمتم : وداعاً يا ملاك الرحمة ، وداعاً يامن غيرت عقيدتي في المرأة ، وداعاً يامن خلقت ملكا في كيان امرأة ، وشهق المسكين شهقة خرجت معها روحه

صرخت الراعية : لا تمت ، لا تمت . عش سأرعاك

* * *

بحثت الراعية عن الطفلة اليتيمة حتى عثرت عليها في كوخ متواضع في عناية امرأة عجوز ، فأخذتها لتتعهدها وترعاها ونقلت كوخها وقطيعها الى واد آخر لتكون بعيدة عن بواعث شجنها وذكري الميت الشهيد

سهرت على رعاية الطفلة في حنان الأم الرءوم وقد علمت من المرأة العجوز أنها ابنة امرأة مسكينة كانت تقطن بجوار كوخ الميت الراحل ولما ماتت صعب على الرجل المسكين ان يترك الطفلة تحت تصرف القدر الجائر فتبناها وأخذها تحت حمايته ليرعاها

وراحت الراعية تخاطب نفسها في شبه همس : هذا القلب الكبير

والروح الجليل والمسكين الرحيم.. فهل يسمع الغني ؟

أيسمع الغني الذي يصم آذانه عن شكوى المتوجعين المنكوبين ؟

أيسمع الغني الذي يصدم بسيارته الكسيح في الطريق فيمر به عابراً ويتركه على حافة الموت

أيسمع الغني الذي يغلق أبوابه عندما يسمع بموت أحد في منزل جيرانه ؟

الله أكبر ..الله أكبر.. الله أكبر على الرحمة المفقودة والشفقة المقبورة والواجب المجهول

مرت هذه السوانح بذهن الراعية التي تعرف ما يدور في عالم الأثرياء وما يجري في عالم الفقراء .. فأحبت الطفلة حباً يقرب من العبادة وتناست بها كل مآسي الحياة غير آبهة بما يجول في نفس كل لئيم وما يوسوس به صدر كل شيطان آدمي رجيم

أولم يمر بها انسان ويلاحظ حنوها على الطفلة فينظر اليها في ريبة ويقترب منها في ارتياب ويقول متهكما.. كان الأفضل ان تضعي الطفلة في ملجأ اليتامى لكي لا تكون سبباً في حرمانك من متع الحياة ، ويبتسم في خبث .. فتفهم ما يعنيه وتعرض عنه دون

كلام ، وكان في مقدورها ان تبصق في وجهه أو تصفعه علي خده ولكنها ترتفع بانسانيتها الى التسامح والأناة والصبر والاحتمال لكي لا تعبأ بأراجيف أبناء الأرض

ويمر بها آخر فيحوم حولها كالذئب ويقول : ما أجمل الطفلة انها تشبهك ، كيف غدرك والدها اللعين ، فياله من شقي أبله . أقذفي بها في وجهه وانتقمي لنفسك منه بالبحث عن سعادتك في مكان آخر فيه تنعمين !!!..

رغم ذلك تضحك وتعانق الطفلة تدغدغها وتناغيها وتداعبها وتلمس طهر السماوات العلا في بسمتها وتلمح نور الحب العلوي في عينيها فالفة بذلك المغنم من دنياها .

وهكذا حبست نفسها علي رعاية الطفلة وأعانها الايمان والصبر على السلوى والاحتمال حتى جاءها الرجل الذي تناسته يتقدم اليها في تهيب وتأدب ، ووقف أمامها كما يقف العابد أمام المحراب يصلي بغير كلام

تجاهلته الراعية قائلة : ماذا تريد يا هذا ؟

قال بصوت خفيض كسير ، أنا ابن وهم الأمس الغابر جئت

أحي ابنة الطهر الأكيد

قالت : أوه .. أذكر أني رأيتك ؟ لا أدري متى ؟ ولا أين ؟ أتريد خدمة يا سيد ؟

فأحس بشعور يجوب قلبه في شبه نورا كتسح كل خوف وتردد ومر صوتها على مسمعيه كنغمة علوية كأنها هابطة من أفواه الملائكة المقربين وركع تحت قدميها قائلا في خشوع :

يا أختاه امنحيني عفوك .. فوالله ما أسأت الظن بك إلا غيرة عليك ومن فرط حبي فيك

قالت في جفاء دون ان تنظر اليه :

أبق عليك كرامتك فوالله ماخلقت الا للتسامح والصبر المبين

فبانت التوبة تلتمع في عيني الرجل كأنه أمام ربه يستغفره ويسترضيه وقال :

حسبي ما عانيت ، لقد عذبني ضميري وأحرقني بلهب التأنيب وها أنذا جئتك بعد ان اغتسلت بدموعي فتطهرت من كل وهم أثيم .. أتعرفين أني أذهب كل أسبوع الى قبر الميت الشهيد أضع على قبره المجهول زهور احترامي وخشوعي اعترافاً مني بجميله ..

لقد انتشلني من بؤرة الظن المهلكة عندما حدثك عن مأساته ، وأنا خلفك أستمع بقلب لو انبعثت حرارته منه لطرقتني

احترمت موته واحترمت حزنك ، فخلوت بنفسي استغفر الله وظللت يميداً وحيداً سجين غرفتي طيلة هذه الأيام التي مرت ، حتى أحسست ان الله غفر لي خيبتك

فابتسمت في لطف وقالت :

واذا كان الله يغفر للمخطئين ألا أغفر أنا .. غفر الله لك .. لقد غفرت .. وكيف لا أغفر ولي قلب امرأة ؟

* * *

توطدت الصداقة البريئة بين الرجل والراعية . والطفلة موضع حنانها وعطفها وفي أمسية مقمرة كان يجالسها وقد غمرهما سكون الحب الدفين .

وبعد أن غالب الرجل وجدانه قال . أيطول بنا العمر حتى نؤدي رسالة الكل الي الكل ؟

فأحست بأن روحه اجتازت صدرها في لطف حتى استقرت على عرش قلبها العالي وشعرت برعشة الحياة تدب في كيانها وتوقظ

ميت وجداتها . فقالت والدموع تسبقها . .

ان استطعت أن تفهمني غلبت بي القدر

فقال : امنحيني الحب وحسبي !

قالت : أيطلب الحب ويمنح ؟ كأنك تتصوره بيعاً وشراء . .

وضحكت في بساطة . . .

ثم أردفت : تجارة عاطفية اشترعوها في القرن العشرين ! اسمع ياصاحبي ، أنا لا أعرف هذا الحب ولا أفهم لغته مطلقاً . ولست أحاول تعرفه أو المخاطبة بأساليبه فاذا عوفيت من أوهام العقل وأضاليل الاحساس فهمت الحب

قال : أنا لا أجيد الحديث عن الحب وانما أحسن الاحساس به

قالت : اذن أنت تفهمه فهل في مقدورك أن تعيش به وله

فبدت على وجهه دلائل الحيرة والتردد وحاول أن يخفي ارتباكه قائلا : بالتأكيد . . بالتأكيد

قالت : لقد نسيت أن اسألك كيف تعيش

قال : والدى (عمدة) هذه البلدة وليس له من البنين سواى تعلمت حتى نلت أجازة الزراعة ولكننى فضلت ان استغل تعليمي

لخدمة بلدي واصلاح أرض ابي ، وفعلا بدأت والحمد لله النجاح حليفي .

فانطلق وجهها وصفقت بكلتا يديها في قوة قائلة :

حسنا . . حسنا ثم صافحته مرددة . . الان فقط اعترف ان الرجل الذي يعتمد على نفسه هو خير الرجال العاملين لوطنه . وعادته تصافحه معقبة . من كل قلبي أهنئك وأرجو لك التوفيق المطرد والنجاح الدائم .

قال : اذن أنت راضية عني .

قالت : كل الرضا

قال : آه لو احتفظت المرأه بطبيعتها أبداً ، يشيع من عينيها بريق الامل الخلاب وتوحي شفتيها بظلال السحر الجذاب وتلهم بموسيقى صوتها أجمل الاغاني المذاب

ثم قبض على يدها في حنان مرددا : اني أخاف

قالت : مم؟

قال : أن يكون في ذاك الشراب قتلي . . في عينيك عمق الابد ، وعلي كلامك طابع الخلود

ثم أحس أن قوة خفية ألهبت عواطفه وأشعلت غريزته فارتعش واضطرب وبكي . .

ثم أخفى وجهه براحتيه وراح يجهش باكيا كالطفل الصغير .

فترفقت به وعطفت عليه وقالت : ما الذى يبكيك ؟

فخجل من نفسه ونظر بعيداً ليخفى عواطفه الثائرة وبدا على وجهه أثر الانفعال الممض فريعت الراعية وتلطفت به حانية رافعة رأسه بيديها في رقة قائلة بصوت منغم حلو

افتح عينيك ودعني اتأمل فيها طويلا !

لأطالع نشيد الصمت الرائع !

لأتبين حقيقة السر الهائل !

لأقرأ قصة الابد فى كلمة واحدة

لأرى ظلال الحلم الذاهب واليقظة الغافية !

افتح عينيك فقد بدأ كل شيء يتلاشى الا معنى الحقيقة المجسمة في قلبى

فغمغم وهو ما زال يخفي وجهه . ومن أنا حتى افتح عينى في عينيك . . لا تعذبيني بدأت احترق ، ارحميني . . ارحميني. يارب

السماء لو رفعتنا الى عرشك في هذه الساعة لكلمناك بأهازيج أرق من نسمات الفجر ولسبحنا بحمدك بكرة وأصيلا !

واكتنفهما سكون الخوف . فتمنيا لو يقف عقرب الساعة ويظل كل مظهر في الوجود ثابتاً ثم طال صمتها . وقد ساعد ذلك الرجل فقرأ في عينيها المغرورقتين بالدموع قصيدة الاستسلام

فاطمأن وهدأ . .

ولما مرت بعض لحظات . نام عقل المرأة لأن القلب بدأ يتنبه وبدأت الغريزة تهمس في كل جارحة في الرجل ، تقدم . تقدم . اشرب شراب الخلود قبل أن يتنبه العقل النائم .

وتحرك الرجل

فلم تتحرك المرأة .

واقترب منها فلم تبتعد ، ونظر اليها في حرارة فنظرت اليه في خوف واضطراب

قال امنحيني الحب صرفا ، أمنحك حياتي وما أملك صدقا

وعادت الغريزة الطاغية تصرخ والشيطان يحلل له الباطل ويخدر أعصابه بمخدر الثورة الجامحة

لم يكن في المكان سواهما .

انه يحبها ويشعر بذلك غير كاذب ولا مرائى

وهي تحبه بدليل أنها تسامره وتناجيه وتتمنى لو تمنحه من عواطفها أعزما يرتجيه . .

وتخبأه في غفوة الضمير الحي ، قبلها ، وبدل أن يحس بالحرارة التي كان يتخيلها أحس ببرودة العدم تسرى في شرايينه

رفع يديه فى وجوم ، فسقط الجسم على الارض صريعاً

وصعق الرجل لما لمح شحوب الوجه بعد تورد كان يضاهى الزهر النضير بهاءاً والجسم الغض الناعم في تصلب جسوم الاموات

وارتمى على الجسم يحركه فلم يتحرك . وتلمس التنفس فأدرك بعد عناء أنه بطىء خافت كأنه فى النزع الاخير .

واعتقد أن فى حياتها أمل !

نضحها بالماء فاستفاقت بعد عناء وفتحت عينيها فى بطء واعياء مغمغمة :

أما زلت هنا أيها القدر الجائر . ثم تكلفت بسمة أمر من المر وأردفت ، يالله . كيف انتهيت عندما بدأت ، ومالى مت عندما حييت

فركع عند قدميها باكياً وفي صوت مرتعش اشبه بهمهمة النائم قال : لا تسلبني لم جننت ؟ سلى نفسك ، لم صاغك الله من من سحر ومغناطيسة، ولم خرجت من باطن الغيب لتأخذي مكانك في قلبي وأي قوة قيدت روحك بروحي ؟ لا تسلبني كيف فتنت بك ؟

سلي نفسك : البت انسانا استودع الله جسمي الرغبة كما استودع قلبي الحب وروحي الايمان ؟ ؟

فاعتدلت في جلستها وقالت ياصاحبي: أحب روحي اوجسمه ،

فتردد ملياً وفكر ثم قال :

أحب روحك ، ولكن لماذا لا أحبهما سويا ما دام في مقدوري

قالت : اسمع ، لا مفر من الاعتراف بأني احبك ، لكن لا يمكنني ان اشوه جلال الحب الروحي بلذة الجسم الوقتية . فان احببتني اخت روح فلك مني اكثر مما ترجو من الاخلاص والوفاء وان طمعت في بدني ، لك دينك ولي دين ، فكر ، فكر جيداً وسأترك لك فرصة يوم او يومان ، بل ايام ، فان قنعت بحبي الروحي تعال القاك بقلبي صافي الايمان وان رجوتني فتاة متعة فلاذهب في طريق الحياة يرعاك الاله من تغرير الشيطان

وتركته حيث هو . وهرولت وحيدة لتختفي في كوخها ولعله كان في شبه غفوة لانه لم يلحظ فرارها الا بعد ان خلا المكان منها

* * *

الرجل حب كما يعتقد والمرأة جديرة بكل قلب وفي سبيلها التضحية تهون !!. لكنها لا تريد ان تعود الى دنيا الناس تطمع في ان تظل في الصحراء وحيدة أو مع الرجل الذي يفضل الحياة بجانبها تاركا وراء ظهره مغريات الوجود

لو عادت معه الي المدينة لاستطاع ان يعيش معها عيشة ممتعة زاخرة بالمسرات

لقد حاول مرة ان يعود بها الى المدينه فأبت وقالت :

أمام الرجل الذى يحبنى الحياة الدنيا بأكاذيبها وأنا بحقيقتى ، فليختر أحدنا فاذا فضل الدنيا بظواهرها فليذهب مع الشيطان فلست له ، وان فضلنى فليعش معى في هذه الارض نتذوق ملذات الروح ونرتشف من رحيق حبنا السامى صنوف الخلد والنعيم

لا يجمع الانسان بين لذة المادة ومتعة الروح

من الأولى يرشف رحيق اللهب فيحترق بعد حين

ومن الثانية يتغذى من معين الجنة وهو مغمور بسحر النعيم

وقال لها مرة أخري : لماذا لا نجمع بين المادة والحب ؟

فقالت : لو كانت المادة تحفظ لي كيان الحب لما ترددت في السعي اليها ولكنها تقضي عليه . . ما عرفت انساناً أحب امرأة غنية مثلا وعاش معها بقلبه الي الأبد ، وما عرفت امرأة أحبت رجلا غنياً وعاشب معه بروحها الي النهاية ويقيني ان الحب يعوض الانسان ما يفقده من لذة المادة

وانسرح الرجل في عالمها وراح يتخيلها طويلا ثم احتوته شبه غيبوبة أسلمته ليأس مرير

انها عنيدة ولا يمكن ان تخضع له

وانتوي ان يغيب عنها محاولا ان ينساها مادام عاجزاً عن تحقيق رغبته ، فلا هو قادر علي مغادرة الحياة والا كتفاء بها ولا هو يستطيع ان يخضعها لمشيئته ويحملها علي العودة الى دنيا الناس

بينما كانت الراعية تفكر أيضاً !!

أتراه صادق في حبه ، لو كان لهرع اليها وعاش في كنفها تحت دوحة حبها الظليل ولكنه ككل رجل لابد له ان يتمتع بكل شيء

وابتسمت مشفقة .. تجربة هائلة تريحني من عناء اختيار رجل حبيب .. من يحبني لا يفزع من الوحشة هنا ولا يحس الجوع بجانبي

وحزت على شفتيها في حرارة وبكت في مرارة رافعة وجهها الى السماء قائلة :—

أيصعب عليك يا رب ان تخلق لي رجلا .. رجلا واحدا يا ثاني في الشعور والتفكير وكيف خلقتني وحدي يا رب ولقد خلقت من كل شيء زوجين !

أنا لا أشتهي الرجل يارب ولكنني أحار في تفهم السر الذي استودع قلبي خلاصة الحب ولم يخلق لذلك القلب من يتمتع بهذا الحب ويبادله حبا بحب؟

ألك حكمة لا أعرفها يا رب ؟؟

ليتني أعرفها لأستريح وأنام الى الابد .. ليتني ..

ثم خافت ان يكون هذا التحدي كفراً فقامت تصلي مستغفرة قائلة : أنت الذي أودعت بجانب قناعتي رغبتي وسجنت روحي في كهف مادتي

أنا لا أتعامل يا إلهي وقد زهدت في أباطيل الدنيا ، ولكنني أحب ان أثبت وجودي

أحب ان أشعر بأنك خلقتني لغاية أسمى من غاية هذا الحيوان

* * *

ومرت الايام بطيئة متوانية وقد أصبح الرجل كومضة برق اختفت وعكفت على الطفلة ترعاها . الا أن الطفلة بدأت تشعر بغياب الرجل . وكانت افهمتها الراعية نزولا على رغبته أنه والدها حتى ان الطفلة تعلقت به وراحت تنتظر أوبته ليحضر اليها بعض الحلوى واللعب كما عودها .

قامت الطفلة في الصباح الباكر تنادي . أبي . أبي

وأيقظت الراعية ، أماه . أين ابي ، لقد غاب . متى يحضر متي يحضر ؟

أي حنين دافق ينساب من قلب الطفلة الحلوة البريئة فينسكب في حرارة الي قلب الراعية فيروى عطاشه وينبهه الي ما مضى

أماه . غاب أبي . متى يحضر . أين هو لأذهب اليه

فتضمها الراعية بعطف محاولة ان تخمد حرارة وجدانها

أى اسم حبيب خلعته الطفلة عليه . . فهل يسمع ؟ ؟ .

أيبلغ حنين الطفلة الي قلبه فينبه ميت مشاعره ؟ ؟.

لو أنها كانت تعرف أن الطفلة تتلهف بقلبها وتحتفظ بكل شيء في قلبها وترجو بقلبها . لما ربطت بينها وبين ذلك الرجل . .

وزادها ألما تعلق الطفلة بذكراه وترديدها اسمه وحنينها الي لقائه . وهي عاجزة عن تحقيق أمنيتها

لذا أخذتها تسير بها في الخلاء على الطفلة تنسى هذا الحنين الملح وامتدبها المسير حتى أشرفت على بلوغ القرية القريبة من الخلاء. وهنا ترامى اليها صوت موسيقى تصدح صاحت الطفلة على أثرها. أماه. أتسمعين . صوت المزمار . لاشك أن أبي هناك يسمعه . هيا نذهب اليه لنراه . وهزتها في عنف كأنها تنبهها الى ما تقول وتدفعها الى سرعة المسير . وسايرت الراعية الطفلة ترضية لها ولكي تهون عليها شدة رغبتها والطفلة لاتنفك عن الترديد . أبي . أبي . هناك سنراه . انه يسمع المزمار . والراعية صامتة تنظر اليها في التياع حتي بلغت القرية فرأت أعلام الأفراح مهفهفة كالأرواح

الخفاقة وقد اكتسب السرور كل شيء صورة باهرة عليها طابع الفرح والبهجة وسارت بها قدماها دون وعي تحت تأثير الطفلة التي تقودها مشيرة بيدها الصغيرة . من هنا . من هنا . كأنها الدليل

ثم توقفت عن المسير فجأة لازدحامه بجماهير الراقصين والمطربين والمصفقين من الفلاحين .

وظاهرة الفرح في القرى أتقى ماعرف من مسرات خالية من الشوائب والكلفة . من قلوبهم يفرحون ويكونون من الجماعات أسرة واحدة . كأن فرح الفرد . فرح كل جماعة من البلدة

ووقفت خجلة تتأمل الفرحة الكبرى البادية على كل وجه صغير وكبير على السواء .

والخفراء يشتتون الازدحام ويوسعون الطريق لسيارة ازدانت بالورود والرياحين .

فهمت من المشهد أنه موكب عرس . وتراءت لها السيارة كسفين تعبر بالعروسين من بحر يموج بالناس الى طريق مجهول ، وكأن القدر يحوم فوقهما مسبلا غلالة محلاة بالأماني والأحلام ليبعد عنهما أشباح الوساوس والأوهام

وأخذت مكانها بين الجموع وقد ملكها شعور مريب فانتعشت وتمتمت ليتها نشوة أكيدة تخرج من فم المزمار لتبلغ قلوب الناس أجمعين . لتوحي اليهم بشعور النعيم

وصرخت الطفلة . أبي . أبي . . انه في السيارة . .

واشرأبت الاعناق ليروا الطفلة التي تنادي . أبي . أبي ـ وقد بدت على وجوههم دلائل الحيرة والتساءل ما معنى هذا النداء ! !

obeikandl.com

obeikan.com

التشريد الم

كانت مريضة بغير مرض ومعتقدة أن في جسمها جميع ميكروبات الأمراض وهذه الميكروبات الكامنة تتنبه تحت أى تأثير خارجي

فاذا سعل مريض بذات الرئة أمامها سعلت وظنت أنها مصابة بذات الداء

واذا تألم إنسان من دوار في رأسه أو شكا ألما فى أذنه توجعت وشكت كأنها مصابة بهذا وذاك

واذا قلت لها أنت بخير ولست مريضة وكل ما بك وهم يمكن تلافيه بتركيز شعورك بأنك موفورة الصحة والعافية — واكدت وأقسمت — بكت وصرخت وصورت لك الألم والعلة في استسلام فظيع يحملك على الصمت — لا اقتناعا بما زعمت — ولكن حزنا على ما أصابها من وهم مريع

تئن وتتوجع دائما .

آه . عيني « وارمه » وتحدق فى العين فتراها صحيحة

ياستي عينك سليمه .

عيني (وارمه).عيني(وارمه) . تكرر ذلك في حدة

فاذا كنت ذكيا . تكلفت التصديق قائلا .

صحيح عينك(وارمه). استريحى قليلا . أريني عينك. (خفف الورم قليلا انظري ؟ . فتنظر فى المرآة قائلة . صحيح وبعد برهة . تتكلف البشر . خلاص انمحى الورم لاأثر له . انظري . . .

فتعاود النظر فرحة : أشعر بذلك وهي بطبيعتها لم يحدث لها أي تأثير انما الوهم صور لها المرض وزواله

ويحدث ذلك ويتكرر في اليوم عدة مرات . مرة تشعر بالصمم وأخري بعدم قدرتها على ابتلاع الطعام وأحيانا بانتفاخ رقبتها وقد تلزم فراشها لأن ساقيها لايقويان علي الحركة .

لاتختلط بالناس إلا إذا دعتها الضرورة الملحة حريصة على ألا أكل أي طعام اوتشرب أى شراب من إناء غير الاواني التى خصصتها لنفسها معتمدة علي نفسها فى نظافتها والعناية بها

تخاف الظلمة ويفزعها السكون ولاتنام إلا فى الضوء وبالقرب

من نافذة مفتوحة حتى في الشتاء، بعد مدة طويلة تأنس الي من يعاشرها فاذا انسجمت ظهرت بطبيعة المرح الأصيلة تضحك وتمزح وتلعب كأنها طفلة طروب فاذا عاودها وهمها بدت كامرأة عجوز بحزنها وهمها

تحترم الشريعة الاسلامية وتقدس الأوضاع الدينية لأنها نشأت في بيئة تنتسب الي أمير المؤمنين سيدنا علي كرم الله وجهه

ومن غير تكلف تحرص علي ستر جسمها ولا تبدى غير أطرافها — واذا خرجت سترت وجهها بنقاب كثيف محاولة ألا تنظر الى أى انسان في الطريق متجنبة التحدث لكى لايسمع صوتها أثناء مسيرها اعتقاداً منها أن ذلك جرماً لانهاية لفظاعته . وهي في منزلها لاتملك من أمرها أي حق مشروع فلا تأكل إلا اذا أمرت بتناول الطعام ولا تنام الا بعد الاستئذان من أبيها أو أمها

حلوة طويلة القامة في غير نحافة شديدة ذات وجه متناسق بديع بيضاء اللون ذات شعر ذهبي لامع طويل تلمح على وجهها صفرة لاتدرى ان كانت من انعكاس لون الشعر الأصفر أم من تأثير الوهم الدفين .

لاتضحك الا نادراً واذا ضحكت قهقهت بصوت منغم فيه تموجات الخلاعة التى لاتصدر الا من البنات الخليعات. وهي لاتتعمد ذلك . انما حنجرتها مصابة بهذه الرنة الظاهرة

تقيم الصلاة في أوقاتها وتؤدي الصوم بأحكام صارمة . فهى في رمضان تحرم علي نفسها أشهى ألوان الطعام . ولاتتناول غير وجبة الافطار قانعة بلون واحد تأكل البطاطس ولاتزيد عليه نوعا آخر وتظل تتناوله كل يوم حتي تشمر بتلبك المعدة فتتركه مستعيضة عنه بالاسفاناخ وهكذا لاتترك النوع إلا بعد أن تعافه أو تمرض منه وهى لاتتأثر بنصحك أبداً . أبداً .

تعجز مهما كنت ذكيا محتالا عن تفهم تفسيرها أو تعرف حقيقة ميولها ونزعاتها .

مؤمنة صالحة محتشمة خجولة ولكنها تجيد الرقص والضحك واللعب وتتحدث في أي موضوع هزلى أو جدي في بساطة محببة وهي من هذا الطراز النسوي المحبوب الذى لاتمل مسايرته ولاتكره معاشرته .

على هذه الحال قضت من عمرها عشرين ربيعا لها في كل يوم

علة جديدة تظهر وماهي بعليلة ولكنها تتوهم ، واشتد بها الوهم فأسلمها الى الخسف والهزال حتى خاف والدها أن تكون مصابة بمرض خبيث فعرض الأمر على صحابه المقربين ليسألهم عن طبيب مهذب أمين . . وقال أقربهم اليه أخيرا :— أعرف طبيبا ماهراً اعتزل الطب منذ سنين وهو يعيش بمعزل عن الحياة قانعاً بما يغنمه من زراعته وهو رجل طيب شريف ثم أنه يعالج أصدقاءه المقربين باخلاص دون أجر وعلي ذلك تم الاتفاق علي أن يصحبه مع ابنته ليقدمها الى صديقه الطبيب . .

. . .

الرجل والمرأة خاضعان لنواميس الطبيعة فكل نظرة تقع على المرأة طبيعية من الرجل ولها الباعث ثم الأثر في الاثنين

وتختلف هذه النظرة باختلاف شعور الرجل فقد تكون موجهة الى الناحية الجسدية المادية وقد توجه الي روحها المعنوية

ولعل النظرة المادية هى المحور الذي يدور عليه تعارف الجنسين أما الذي يتجاوز هذا الطور— طور المادة— فانه لا يقنع بالكفاف بل يتخطي الحاجز البشري الي الفؤاد متغلغلا في تلافيفه طامعا في

الروح ، يطمع في احتلال الذهن والذاكرة والخاطر والفؤاد يحاول محو مافيها من الصور والمؤثرات ليبقي عليها ظله وحده

والصلة المادية التي تربط بين المرأة والرجل ، رابطة غير ثابتة اذ تزعزها الغيرة ويلاشيها عدم الثقة ويضعف من لحمتها وملذاتها طول الزمن أما الصلة الروحية فهي رابطة متينة ثابتة تربط الروحين وقوة جليلة تصل بين القلبين لاتزعجها الماديات ولا الانفعالات وتكون أطهر وأسمى جميع العلاقات ، لاتكتسحها الطواريء ولاتزلزلها بواعث الانزعاج ، اذ هي الكفاية بين انبعاث النفس للنفس إذ أن تنبه العاطفة للعاطفة فيه تركيز للارتياح والثقة فيحل الحنان الهادييء مكان الشوق العاصف والاشفاق الوديع مكان التفزز الوثاب وهذه العاطفة تضمن البقاء وتبعث على الاطمئنان فى هدوء لأنها من أطهر أنواع الحب وأنقاه ـ صلة بين الروحين أو لحمة بين العاطفتين تقوى على الطواريء والمصائب

فاذا ارتفع الانسان بغرائزه الي الروحانية فلن يحول بينه وبين السمو بانسانيته حاجز مادي

واذا أنكر العالم هذه الحقيقة فلأنه عاجز عن السمو بروحانيته

وحسب الانسان من هذا الشعور الجميل أن يؤنسه فى وحشته ويملأ ذهنه بأجمل الأحلام قانعاً فى خلوته بتنبه العاطفة للذكرى ويبعثه على الارتياح وثوقه من سيال العطف الروحى يغمره وتيار الحنان ينساب في فؤاده من قرب أو بعد — فكلمة للهزاء تصدر عن حنان أقوي تأثيراً في مصدر العاطفة من مطارحة عن اشتياق

نحن نكد للارتقاء بالثقافة والأدب ونجد الي الكمال فما الذي يبدد الوجهة في أشواط العاطفة ؟ ؟

لماذا لانرقى في هذه الناحية أيضاً ؟ ؟

فنطلب الارتقاء عن مصاف العامة بتطهير السبيل والوسيلة والغاية لنرقى بالحب عن الحيوانية ؟ ؟ .

الكهرباء تنتج في سكون فلا تري ؟

فلماذا لاتكون العلاقة الروحية بين الجنسين من هذا النوع الساكن غير المنظور ؟ .

نظرة هادئة . هى رسول لاسلكى بين الفؤادين وابتسامة غير منظورة رسالة واضحة بين عاطفتين وغمضة لاتدركها الأبصار

تكشف للمبصر عن البواطن وخفايا الجوانح

وجميع هذه الدلالات الخفية الواضحة نجدها في الصلة الخالدة بين الروحين بدون قوة التأثير في عالم المادة والضجة الكاشفة .

بهذه الخواطر شغلت الفتاة ذهنها عندما قرأت ذلك في احدى الصحف لآنسة أديبة .

ولأول مرة في حياتها تقرأ مثل هذا الكلام. ولقد استطاعت أن تطالعه خلسة في غرفة الانتظار عندما ذهبت مع والدها الى منزل الطبيب. وقد تركها الوالد ليخلو أولا بالطبيب ـ لأن والدها يحرم عليها مطالعة المجلات والصحف والكتب التي لا تبحث في الدين ، وذلك لكي لا تتعلم أباطيل المجتمع مما ينشر ولكنه لم يستطع أن يحرم على الفريزة محاولة تعرف المجهول وتفهم المحرم !!.

لقد تعلمت في احدي المدارس الأولية ثم حبسها والدها في الدار مكتفياً بما ألمت به من مباديء القراء والكتابة لتستعين بما عرفت على تعلم أصول الدين وقد أفادها الاطلاع في كتب الدين الى حد ما .

لكن الفريزة لا تقاوم . أبداً . أبداً .

والطبيعة لها طريقها المرسوم منذ الأزل تسير فيه الانسان رغماً عنه . ولأن الفتاة لم تتعود مطالعة الدراسات العاطفية وكل ما تعرفه عن الحب أنه جريمة محرمة . بدأت تحس بأن هناك نوعاً آخر من الحب . ولكن عقلها الذى ألف المجاعة الروحية لم يتأثر بهذا الاحساس الغامض وهيمن على مشاعرها وأوحى اليها بأن الحب على أى صورة إثم مبين لذا قام صراع بين القلب الذى بدأ يتنبه وبين العقل الراكد . القلب تسلح بالغريزة والغريزة توضح بغير لغة رسوم الحب في جمال مغر والاحساس يجسم كل صورة ويحفر لها فى ذهنها بؤرة عميقة . حتى تنازعت تعاليم الدين المكتسبة مع أحاسيس الغريزة .

وراح العقل يدافع بمنطق لبق ليصون الفتاة من الغواية . . قائلا بأسلوب الدين — الجنة لمن اتخذ كتب الغرائز دينا . وارتاحت الفتاة لهذا الخاطر وتركت ايمانها يهمس في صدرها الجنة لمن حكم غرائزه . وقبض على زمامها فلا يسف . الجنة لمن يواجه اللهب ولا يحترق ، ليست الفضيلة في أن تحتجب عن مغريات الرذيلة لتتحصن بالايمان في الظلام ، بل الفضيلة أن تقاتل الرذيلة بسلاح الارادة والايمان

وعاد القلب يخفق راجيا . غـذاء الروح . والروح مقيـدة لاتستطيع حراكا لأنها تعيش في جو خانق ! ! .

واشتد العراك بين العقل والقلب في صدر الفتاة ولـكنها لم تفقه كنه هذا التناحر لأنها لم تألف اشتجار مثل هذه الخواطر غير أنها استسلمت رغما عنها الى شعور مبهم فيه حنين الى شيء مجهـول ! ! .

عله حنين الشباب الي الشباب . أو حنين القلب الى القلب

انها تشعر بأنها في حاجة الى شيء يطمئن قلبها ويهدىء روحها ولـكن لاتدرى ما هو هذا الشيء ؟ .

وعاد الوالد ومعه الطبيب . فتـكلفت الفتاة الهدوء والاستكانة ولما سألها الطبيب في لطف عمـا يعتريها من نوبات وما تشعر به من آلام . أخرس التهيب لسانها لان هـذه أول مرة تلتقي برجل غريب وتخاطب رجلا غريباً وفي اضطراب وتلعثم بعد ان استجمعت كل شجاعتها قالت بصوت خفيض : كل جسمى ـ ففهم الطبيب من نظراتها الزائغة وحركاتها القلقة وشحوب وجهها أن بها علة دفينة فطلب اليها أن تكشف عن صدرها ـ الى حد ما ـ لكي

يختبر قلبها وظهرها فريعت وتراجعت ونظرت اليه دهشة متمنعة كيف ترى صدري وظهري . لا لا . هذا لايمكن أبداً . أبدا

فأمرها الوالد أن تخضع لمشيئة الطبيب اذ لابد من ذلك.

وهزت الفتاة كتفيها ممانعة . فعاد الوالد يأمر في عنف حتي استسلمت وهي باكية

فأشفق الطبيب على الجمال الذابل حليف الوهم القاتل وعطف عليها ثم أفهم الوالد على مسمع منها أن ابنته مصابة بالوهم وهي في حاجة ماسة الي الرياضة واستنشاق الهواء النقي وتناول الطعام المغذى ومشاهدة كل ما يجلب السرور والبهجة لها .

وانصرف الوالد وهو يفكر في أوامر الطبيب . كان أيسر عنده أن يدفع عشرة جنيهات أو يزيد ثمنا للدواء بدل أن تخرج للرياضة واستنشاق الهواء في الحدائق والطرقات التى أصبحت بتأثير الحرية المطلقة أشبه بمجمع يعلم الناس الاضاليل ويبيح لهم كل محذور . واستعاد الشيخ صور المآسي والمصائب فارتعد وانتفض . وفضل لحبه بابنته أن ينفذ تعاليم الطبيب في حرص وحذر . ولكن ذلك سيتطلب منه تضحية وقته الذي أوقفه على تعليم تلاميذه في

مسجد الحسين رضي الله عنه .

ولما أختلي بالام وقص عليها الخبر أشفقت على أبنتها وخافت أن تموت تحت نير التقاليد وقد كانت الأم قبل أن تتزوج تتمتع بحياتها وحريتها الى حد ما وفي مقدورها أن تقارن بين حياةوحياة حياة الحرية المعقولة وحياة السجن الخانق ولذا استطاعت أن تقنع زوجها بضرورة رياضة البنت . . وليكن ذلك مع الخادم أو الاخ بدل أن يعطل نفسه ويضيع وقته — وبعد جهد أثرت على الابنة التي مانعت في الخروج أولا واستسلمت لنصائح الأم .

* * *

خرجت الفتاة من الظلام الي النور دون أن تتهيأ لمواجهة النور خرجت خلية الذهن من كل شيء يعلمها الحرص والحذر هى تعلم حقا بما ترامى الى أذنيها من صديقاتها القريبات أن الشبان تغرر بالبنات .

ولكنها ساذجة . . جاهلة . . بريئة . . لم تلحظ عن كثب كيف تقتحم الرجال قلوب المحصنات .

كل شيء في الحياة بدا أمام ناظريها جديدا مغريا جميلا وبدأت تفهم الحياة بمقدار ماتبعثه من المسرة في نفسها وراحت تهب من معين الأمانى راجية أن تكون مثل هذه الغادة الهيفاء التي تسير كالغزال في الطريق أو مثل هذه الكاعب الحسناء التي تركب احدى السيارات في زهو وكبرياء . .

بدأت الرغبة تلعب دورها على مسرح ذهنها وتيقظت احلامها وتحفز قلبها لليقظة ...

وقد حرصت على الخروج كل يوم أحيانا مع الخادم أو الأخ وأحيانا اخرى بمفردها اذا انشغل هذا وتغيب ذاك

والوالدة لاترى غضاضة فى خروجها وحدها فقد كانت هى تخرج من قبل وحدها وصحة ابنتها أحب اليها من التقاليد والاوضاع وأحق من احترام تعاليم الوجود ان ما نعت هذه التعاليم فى رياضتها .

خرجت الفتاة خلية الذهن من اللؤم والخداع جاهلة أساليب

الكذب والنفاق تحسب كل الأمور تجرى بطبيعة الصدق والصراحة . وبدأت تتعثر فى الطريق كلما عاكسها متطفل جرىء ولكنها لم تحجم عن الخروج لأن الحياة الخارجية تكشفت لها عن روعة لم تتلمسها داخل دارها .

وبعد أيام تحسنت صحتها ففرح الوالد واطمأنت الأم وتفاءلت الابنة بمستقبل بهيج ولم لا تتفاءل وقد كانت تظن من قبل أنها ستموت قريبا أما اليوم فهي تشعر بالحياة . والقوة وتلمح وجنتيها المتوردتين في المرآة فتطرب وتتفاءل .

وهي في الطريق موضع نظرات كل من يمر بها وان كانت لاتدري أهذه النظرات من فرط الاعجاب بجمالها . أو سخرية من احتشامها فانها مازالت تحتفظ باللباس المحتشم والخمار السميك على انها استطاعت أن ترفعه في الظلام وفي الخلاء . ولشد ما كان يبهجها التنفس الطليق

وبينما كانت سائرة ذات يوم وحدها ضلت الطريق فراحت تنتقل من شارع الى آخر لتخرج من المأزق حتى لمحت عن كثب منزل الطبيب وسرعان مامر بذهنها طيفه فتوقفت مترددة حيال

فكرة خالجتها . يمكنها أن تسأله من اين تسير الي منزلها وتنتهز الفرصة لتقدم اليه الشكر الجزيل علي حسن صنيعه

أتذهب اليه ؟ قد يسيء الظن بها !! ..

أتواصل المسير وهي تجهل الطريق ؟ تخشى ان يطول بها التعثر

أتسأل أحد المارة ؟ قد يشاكسها

أتركب عربة توصلها الى المنزل ؟ لا تطمئن الى الحوذي

في كل فكرة تراءت لها أشباح مساوئها مجسمة فخافت وارتعدت واحجمت

أخيراً لمحت الطبيب يطل من الشرفة ناظراً اليها

لقد رآها بلاشك . أتذهب اليه ؟ خير لها ألا تذهب لكي تحتفظ بكرامتها

وطال بها الوقوف بين الاقدام والاحجام . حتى سمعت صوتاً خفيتا يقول ـ هل سيدتي في حاجة الى خدمة ؟ .

والتفتت فرأت خادم الطبيب

فتأهبت لكي تقول له . أريد ان أذهب الى منزلي لأني ضللت الطريق . ولكنها لم تقل بل سارت معه الى منزل الطبيب

الذى ظل في موقفه يرقبها

دخلت عليه متهيبة مترددة وقد أكسبها الخجل روعة وجمالا فاستقبلها في لطف وحياها في أدب وسألها عن صحتها وما كادت ترفع الخمار حتى قال · صحتك جيدة . جيدة جداً ولقد أكسبتك الصحة جمالا أخاذاً ناضراً

وأطرقت الفتاة خجلة مغمغمة . بفضلك يا دكتور · ألف شكر لك وطلب اليها أن تستريح قليلا . فترددت قائلة · أريد أن انصرف فهل لك أن تدانى علي طريق منزلي لأنني ضللته . خفت ان اركب عربة فيحدث لى ما يحدث للفتيات أحيانا لأن السائق لا يؤمن جانبه فى كل الاحوال ـ كما يقولون ـ وخفت أن أسأل أحد المارة فيفسر سؤلي تفسيرا سيئا فيتبعني كما حدث لاحدى قريباتي وخفت أن أحضر اليك لما رأيت منزلك فتظنني متطفله . . ثم أطرقت خجلا . .

فقال فى لطف وتواضع . أبداً بل كان يسرني أن تأتي إلى من تلقاء نفسك لانك بخوفك منى وضعتني في قائمة الآخرين

فارتبكت الفتاة وودت لو تقول شيئا ولكن منطقها لم يسعفها

فصمتت عن عي وحيرة وخجل

فأدرك الطبيب مادار بخلدها فقال . في الواقع خروجك وحدك خطر فكيف أباح والدك الشيخ لك ذلك ؟؟..

فريصت الفتاة . وقالت . اخي علي سفر والخادم مشغول وأبي لايعلم بخروجي وحدى ، وأنا طبعا أعرف كيف أصون نفسي . فابتسم الطبيب قائلا . جميل أن تثقي بنفسك وتعتمدى علي ارادتك وقوتك . ولكن حذار من الذئاب والشياطين

انهم ينصبون الشباك حول الفتاة بمهارة فائقة ويلقون الحب في طريقك ذو لون مغر وشكل جميل وطعم لذيذ فاذا التقطته تخدرت أعصابك واستسامت . ومتى استسامت وتلاشت ارادتك وأصبحت كالاخريات اللاهيات . أنا أنصحك بعدم الخروج وحدك لان البيئة لم تهيئك منذ الصغر ـ كما علمت من صديقي ـ لمواجهة ضجيج الحياة وأكاذيب المجتمع ولم تسلمك سلاح الدفاع والحكمة لتحاربي بها كل مقتحم لئيم .

انهم يلوحون بعصا الحب أمام أنظار الفتيات فاذا جذب الضوء عيون الحسان سرن علي ضوئه في الطريق وهذا الحب الصناعي

خدعة كبري . فحذار حذار

فانزعجت عندما سمعت كلمة ـ الحب ـ وارتعشت وقد بدت حمرة الخجل على محياها الجميل وقالت بصوت خفيض ـ أنا لا أعرف ذلك الذي يسمونه الحب !

فتنهد الطبيب وقال ـ عل ذلك من بواعث نعيمك وان كانوا يقولون . الحياة بغير حب جهنم وبالحب جنة ونعيم . وتنفس الصعداء ثم أعقب . وقد يكون ذلك صحيحا لولم نفسده بشرور النفس الامارة بالسوء

فريعت الفتاة وغمغمت ـ ولم نكون أشراراً وفي وسعنا أن نكون أخياراً فقال لها بصوت هادىء رزين . ان الانانية والجشع مبعث كل اثم . والحرب الطاغية التى تقوم بين أمة وأمة كالصداع أو الخصام الذى يقوم بين نفس ونفس

فقاطعته الفتاة فى سذاجة . انهم يعلموننا الأضاليل والمجون باسم الادب والحرية . لقد قرأت فى صحيفة كانت هنا عندك فى غرفة الاستقبال يوم جئتك بحثا طويلا ودراسة وافية عن الحب ألا يعلم ذلك النفوس البريئة مالم تعلم من اثم وبهتان

فضحك الطبيب لسذاجتها قائلا ـ الكاتب يا آنستى يكتب ليصلح وينشر ليرشد . فالذنب اذن ذنب القارىء الذى يفهم الادب بظواهر الالفاظ كالطفل الذي يخلط بين بريق الذهب والنحاس ولا يستطيع أن يفرق بينهما . كل شىء في الحياة ياآنستى تلونه النفس بأصباغ شعورها ويكسبه الذهن طعم حلاوته أو مرارته أى جهله أو عرفانه فاذا عرفت ذلك ـ عرفت أن الحقائق ضائعة فى غياهب النفوس افهمت ! ؟ .

فهزت الفتاة رأسها متألمة وتجهم وجهها وغمغمت قائلة : انك تخيفنى من الناس جميعا

قال : نعم أدعوك الي الخوف منهم ولا تطمئنى الى أى بشري حتى ولو لبس مسوح الراهب أو الناسك أو الزاهد وفكرى دائما فى ان الرجل ذئب والمرأة فريسته الذى يبحث عنها فى كل مكان وهو لا يقنع بفريسة واحدة ملكا خالصا له . بل يشتهي دائما ان يعب من دم كل فريسة ومع الاسف فريسته ذات دم معطر يجذب الذئب من بعيد

وهنا خافت الفتاة فوقفت رافعة وجهها الى الله قائله : رحمتك

يا الهي . لماذا خلقتنا اذن يارب ؟ لقد طبعت على مخلوقاتك بعض سماتك فهل يمكن أن يكون الانسان وغداً حقيرا وفيه قبس من نورك ؟

فقاطعها الطبيب . أنت ملك . وأرجو الله مخلصا أن يحفظ لك طهرك . وأن يبعد عنك وسوسة الشياطين وايماوزالكائدين لقد ذكرتني بالروح الطاهر الذي فقدته وأخفى وجهه ليواري دموعه

فتراجعت الفتاة وقد أيقظ حزنه البادي عطفها وقالت . أي عزيز فقدته ؟

فتنفس الطبيب بمرارة واستطرد . روح كروحك لها طهر السماوات العلا قالت . أختك

فتنهد وهو يغالب دموعه . الروح التي هدتني وأضلتني

فنظرت اليه دهشة ثم قالت : اذا أساءت اليك بقدر ما أحسنت! لكن كيف يتفق الاحسان مع الاساءه ؟

فقال في تأدب وهدوء . أتسمحين بالجلوس بضع لحظات ؟

اني أحس أنها أمامي ولولم يكن للبعث آية لظننتها بعثت اليوم من جديد آه . أشعر الآن بأني أعيش في الماضي مفموراً بأحب الانفاس الطاهرة العبقة

وهنا لمحت الفتاة ظلال الأسي مرتسمة على وجهه في شبه كآبات من الضوء تجذب قلبها في لين لطيف فعطفت عليه دون كلفة قائلة أترى فقدت أختك أو . وشاءت أن تقول أمك لكنها خافت أن تكون أمه حيه فيؤلمه ذلك التخمين

قال : لقد فتحت شغاف قلبي الآن بطهرك . لذا أريد أن أتنفس. اريد أن أروح عن نفسي التي لفها الحزن في بردى العذاب منذ أعوام . فليتك يا آنستي على تفهم ما أقول قديرة ؟ ؟

فقاطعته . لست غبية يا دكتور !

قال : في الواقع أنا في حاجة الي من يسمعني بقلب لم تشغله شواغل الحياة ولعل القدر بعثك اليوم الي . فشكراً لله ولك والآن اسمعي لتعرفي أن حظ النفس الطاهرة في الوجود الحرمان والعذاب وأن الشيطان لايحلو له الا محاربة الأطهار

. . .

كنت طالباً بالمدرسة الثانوية يوم مرضت ابنة جارنا الفقير وكنت شغوفا بمراقبة هذه العائلة من نافذة غرفتي التي تشرف عليهم وتكشف خبايا هم

لذا سهل على معرفة ما يعانيه أهل المريضة من عسر وضيق حتى صعب على الوالد أن يعالج ابنته بوساطة طبيب نبيل يتطوع لعلاجها بغير أجر

وضرب الدكتور جبينه بيده كأنه يبعد عن ذهنه ذكري مؤلمة ثم استطرد . ما زلت أذكر يوم ذهبت للرجل قائلا : ألم تستدع لابنتك طبيبا؟

فقال : وكيف أقدر على الطبيب الذي يأبى أن يتحرك من منزله الا بعد أن أقدم له ما يرجو من المال . هل اكذب؟ هل أسرق؟ هل أغش؟ لا يمكنني أن أكون لصا وقد ولدتني أمي شريفا وأنشأني والدي عفا ثم بكى وهو يقول . أنا أغالب الفقر في جهد الجبابرة. وها هي ابنتي تموت تحت ناظري من جراء الفقر فما عساي أفعل لقد كنت أباهي بفقري وأقول شرفي حسبي تصور يا ولدي أني أقضي طوال اليوم أعمل في تنظيف الشوارع . لقاء دريهمات لا تكفي

لسد رمقي وحدى . ومع ذلك أعيش مع زوجتى وأولادى قانعين بالقليل نأكل وجبة بسيطة ونترك أخري ألا ترانى كالقائد الذى يقاتل الايام على أمل أن يهرع أخيرا بجيشه الي الوكون تياها بشجاعته ونيله

كل شيء أتحمله ياولدى . الجوع . العري . الحرمان إلا موت ابنتى . ذهبت بها الى المستشفى فنظر اليها الطبيب فى كبرياء وعتم دعوها في المستشفى بضعة ايام تحت العلاج . ولم يحاول ان يعرف علتها بالضبط وهمس في أذنى مساعد الطبيب : ان شئت ان تتعافى ابنتك فعالجها في مستشفى الطبيب الخاصة . العلاج هنا لافائدة منه . ألوف من المرضى أفهمت . وغمز بعينه ومد لي يديه

فتنهدت وقلت : الى الغد . وسحبت ابنتى وخرجت هاربا بها من الموت فقل لي بالله . أين أذهب . والطبيب يستغل واجبه لغايته الشخصية آه ما عساى أقول لك كثير . كثير جداً ولكننى محموم بسبب ابنتى

وانقطع الطبيب عن الكلام ليجفف مدامعه وليشفق علي الفتاة التي بكت متأثرة ثم استطرد بصوت متقطع النبرات

كنت في هذه السن مشبوب العاطفة مليء النفس بالمثل العليا

فملكني العطف على ارجل المسكين وأشفقت على الفتاة المريضة وصح عزمي علي أن أساعدهم جهد استطاعتي وبدأت أدخر من مصروفي ورحت أكذب علي والدي وأطالبه بنقود مدعيا أنها مطلوبة مني لقضاء لوازم مدرسية ثم أقدمها الى والد المريضة فكان يتقبلها باكيا راجيا ان يردها الى في مقبل الايام عندما تيسر له الحال

وأقسم لك أنني لم أفعل ذلك من أجل المريضة ولم أفكر فيها مطلقا وانما كان شاغلي الوحيد هو بؤس العائلة وما تكابده من آلام وحرمان بينما نتمتع نحن وأمثالنا بكل متع الحياة المشروعة وغير المشروعة وتفتح ذهني واتجهت مشاعري نحو مآس الحياة وما يعانيه البؤساء حتى اصبحت أعبر الطريق القصير في ساعات بدل دقائق معدودات كما كنت أفعل من قبل وذلك لأنني تحولت الى قوة مفكرة حساسة هائلة تتأمل كل مشهد وتتفرس في كل ظاهرة

نقمت على الاغنياء البخلاء — حتى علي أبي — وقد كان الذهب الذي في خزانته كنار موقدة كلما لمحتها خيل الى أنه نار تشتعل فكنت احترق والصهر حتى تحولت الى ثورة وتمرد

في خزانته عشرة آلاف من الجنيهات أقام نفسه حارسا عليها

ليل نهار . وجارنا لا يملك قوت يومه .

أى ظلم ، أى بؤس ، أى شقاء

أبى يملك هذه الألوف ويقضي طوال النهار نائما يغط كالبهائم وفي الليل يتمتع بكل مايهوي من أطايب الوجود في الدار أو خارجها

وجارنا الفقير المحروم يكنس الطريق طوال النهار لقاء دراهم معدودات لا تكفى لسد حاجته وحده وهو مع ذلك لا يشكو ولا يتبرم ويعيش مع أسرته فى هدوء كأنهم اتخذوا المجاعة دينا

فكرت في لحظة جنون أن أقتل والدي ثم أوزع ماله على كل محروم يئيس ثم عادوني ايماني فعدلت وظننت أن لا أبى العذر لانه يعيش بمعزل عن الفقراء والبؤساء ولم يتذوق مرارة الحرمان ولم يشعر بألم الشقاء . وحاولت أن أوجه نظره إلى واجبه الانساني ولا شك أنه سيرحم هؤلاء ويمنحهم مما وهبه الله ، وجئته ذات مساء قائلا ان جارنا الفقير يا أبتاه له ابنة مريضة يدنيها من القبر فقر والدها المدقع اذ ليس في مقدوره أن يعالجها عند طبيب

فاستفسر من ؟

قلت : جارنا المسكين . الكناس ، وعجبت فى نفسي كيف

تمر على هذا التجاور عشر سنين منذ اشترى والدى هذه الارض وابتناها قصرا وحاول أن يشترى كوخ الفقير لكي يجعل منه حديقه رحيبة تتناسب مع قصرنا الشامخ . فامتنع الرجل وأبى أن يبيعه يعال قانعا بالعيش فيه

عجيب . كيف ينكره أبى ولماذا يتجاهله ؟ !

وأخيراً هز رأسه ومط شفتيه وتمم . ليذهب بها الى المستشفى

قلت : الاهمال هناك يقضى على المحتاجين .

قال : لاسبيل أمامه الا ذاك

قلت في حدة ، نحن أغنياء وقليل من المال نبذله في سبيل اسعاده لا يضيرنا . بل من حقه علينا الرعاية والعطف . نحن أقوياء وهو ضعيف . أليس من الواجب العطف عليه على الأقل ؟

فصرخ فى وجهي ، أنت معتوه . أن هذا الفقير لا يعرف فلسفتك الجافة وهو قانع بحياته وليس هناك من يعيب عليه ظواهر الفقر ، أما نحن فالعيون ترقبنا من كل جانب والحياة تطالبنا بنفقات باهظة تتناسب مع مركزنا . اذا حضر الوزير لزيارة البلدة من يرحب به ؟ ومن يبذل المال الوفير لاستقباله . اليس الغني هو

المطالب بذلك كله وهو الكفيل بالترحيب به واستقباله

فقاطعته ، يا أبي ـ الفتى هو الذي يجلب لنفسه هذا الزهو الباطل والظهور الكاذب ، قل لي بالله ما الذي يجنيه الوطن من صرف مبالغ طائلة لعمل الحفلات واقامة الزينات بينما البؤساء يتضورون جوعا وينامون على الارصفة بملابسهم البالية

انصرف الالوف لرفع أعلام الأضاليل وهناك منازل مغلقة على الظلام المدلهم . جوع ومرض وحرمان وسقم يملأ جنبات هذه المنازل بدل الاضواء الباهرة التي تشيع في الطرقات

أنصرف المئات لاقامة مأدبة واحدة لاستقبال عظيم أو للتعبير عن شعورنا طوعا أو غصبا وهناك الملايين من الفقراء لا يملكون قوتا ولا يجدون كسرة خبز

وصمت مليا أفكر في طريق انبه به عطفه هاله يلين ويرحم بينما كان هو لاهيا عني بقراءة أخبار المساء وكل الذي يعنيه من هذه الاخبار أفراح فلان باشا ليهنئه ومصائب فلان باشا ليعزيه وعودة الوزير ليستقبله وسفر الوجيه ليودعه وأخيراً قلت :

أعرف أن في خزانتك ما يزيد عن عشرة آلاف و ...

فقاطعني صارخا : أترصد مالي ؟

قلت في خشوع : لم أحاول رصده . انما أريد أن اقول ان هذا المبلغ يمكن استخدامه كأداة صالحة لخير الوطن الكبير فتستفيد منه وتفيد أبناء وطنك العاطلين . هل لك ان تتخذ من طلعت باشا حرب واخوانه قدوة صالحة؟ أخوف ما أخافه يا أبي أن تتفتح عقول الشباب قريبا عن أفكار ثائرة جائحة وتمرد محتجز فيحدث لا سمح الله ما لا تحمد عقباه خير لكم من نفع واستنفع فلم لا تكون من خير الرجال العاملين يا أبي؟

فانتصب واقفا وقال : أنت مجنون وخير لك ان تلتفت الي دروسك بدل هذا السخف الذي تفكر فيه . ان الشاب منكم يظن نفسه افلاطون عصره اذا عرف كيف ينتقي بعض الالفاظ من الكتب عن حق أو باطل . ثم تركني وانصرف عني مزمجرا ساخطا

خاب مسعاي ولم أستطع تلطيف مشاعر أبي فاضطررت ان آخذ كل ما تمتد اليه يدي من ماله أو مال أمي لانفقه على هذه الأسرة المنكودة وعلى كل فقير محروم . وعشت مع هذه الاسرة الفقيرة برحمتي ووجداني حتي طغت الروحانية علي المطامع

المادية وتفتحت مشاعري على سرائر الوجود واستطعت أن أعرف أسباب الشقاء الانساني وبواعث الجرائم والمحن .

إثرة وأنانية وجشع ، كل هذه النقائص تكيف حياة الغني وتضع أمام ناظريه غشاوة كثيفة من الجمود والظلم والقسوة مع ذلة ومسكنة يشملها حقد وتبرم يلازمان مشاعر الفقير فلا هو مشمول بالرحمة فيقنع ولا هو مكفول بالرعاية فيطمئن وكان لابد أن أحارب نزعات المؤثرات الخارجية نزعات مؤثرات بيئتي القاسية حتي انتصرت أخيراً واستطعت ان أنزع الفطرسة والنفاق والكبرياء والطمع والقسوة من قلبي حتى أصبح قصرنا العظيم ومركز والدي الرفيع وجاهنا التليد أعظم جرما من مساوىء الفقراء اذا اقترفوا اثما وبهتانا في ناظري

ولما انتهيت من دراستي الثانوية ودفعني تأثري من طمع الأطباء أن أتعلم الطب لكي أكون رحيما ورسول خير لكل من تعوزه معونة طبيب ، وكنت في ذلك الوقت قد تعلقت بابنة الجار ولكنني كتمت عنها هواي لكي لااشوه طهرها أو أخرج بها من معبد براءتها وصومعة قناعتها الى دنيا أحلام الشباب الطائشة

المزعجة وقد فهمت باحساسي ان الفتاة أحبتني ولكنها أخفت عني حبها ولم تحاول ان تصارحني به خجلا وحياء وظنا منها أنه لا يمكن ان أبادلها الهوى أو انظر الى حبها بعين الارتياح لما بيننا من فارق مادي

ومازلت أدين بحياتي الى القوة العاطفية التي كانت تهيب بي دائما الى الكفاح والنضال والعمل المتوالي دون نصب أو ملل لكي ابلغ غايتي المرجوه لقوة هذه الفتاة الروحية

حتى نلت أجازة الطب وصح عزمي علي تنفيذ المنهج الذي رسمته لنفسي ..

وشاء أبي ان يفتتح عيادتي في أجمل حي من الأحياء الارستقراطية ، فأبيت واتخذتها في حي من أحياء الفقراء . .

فاستنكر أبي تصرفي وأفهمني انه لا يليق بابن فلان باشا أن يتخذ عيادته في حي حقير وحاول أن يثنيني عن عزمي بشتي الطرق فلم يفلح ووجدت طريقي من غير تهيب وبدأت اقوم بعملي على الوجه الذي يرضي ضميري

غضب ابي وقطع عني مساعدته المالية فلم أحفل ووطنت النفس علي الجهاد والاعتماد على عزيمتي وحدها وتوهمت اني لن أعدم

علاج بعض الأغنياء فيعينني ذلك على معالجة الفقراء بلا أجر بقدر المستطاع

لكن - مع الاسف - لم يطرق باب عيادتي مريض واحد من الاغنياء وعرفت اخيرا أن مظاهر الجاه والشهرة السبب القوي في تكييف حياتنا الاجتماعية والسياسية والأدبية والفنية.

لم يطرق بابي اى رجل غني او وجيه لأنني اعالج الفقراء والفقير لا يعرف كيف ينفخ في بوق الشهرة الكاذبة بأسلوب الرياء المعسول فلو انني عالجت — فلان باشا — لملأ اسمي الاسماع ولكنت انبغ طبيب ولهرع الي كل عظيم ، اما وانني اطبب الفقراء فمعني ذلك انني غبي جهول

الف سواة لظواهر هذا المجتمع بقدر مافيها من بريق خلاب فيها معائب للأبرياء الوادعين

لم يحزنني هذا الجحود لأنني استعضت عنه معرفة وخبرة وفلسفة فاستطعت ان اعرف في شهور ما كان يصعب على معرفته في اعوام لو عشت بعيدا عن الاتصال بالفقراء وتفهمهم عن كثب

تلمست بيدي الجثث التى تسير عليها اقدام الأغنياء في غير

رحمة ولا خوف من الله العلي القدير .. لكأنهم يخور الأسي المريع الذي يرتفع الى السماء مكفراً عن جرائم طغاة الاحياء . . ولطالما نفخت في بوق الرحمة والرجاء على صوتي يبلغ آذان قساة الأثرياء فكان الأثير يرجع آهاتي . . لأنهم مع الاسف صم بكم لا يبصرون

رضيت بالحياة المتواضعة قانعا بركني البسيط سعيدا بخدمة المرضى التعساء ، وقد تزوجت ابنة جارنا المسكين مفضلا الفتاة العفة الفقيرة المخلصة على الفتاة المستهترة الثرية الجاحدة وقد كانت زوجي عند حسن ظني فمنحتني كل ما اشتهيه من حب وما اطمع اليه من طمأنينة وهناءة . ولما علم والدي بزواجي جن جنونه وجاهد لكي يحول دون تحقيقه فلم ادع له مجالا للمحاولة ولم اعبأ بتهديده الذي يلجأ اليه كل غني قادر ظانا ان منعه ابنه من الميراث يغير مجري تفكيره وذلك شأن العاطل الجاهل الضعيف اما انا فقوتي وايماني اجل من ثراء العالمين لو تجمع تحت يدي

اصبحت في عرف العائلة كبيرها وصغيرها . . مخطئا مجرما . لأنني هبطت من مستواي الرفيع الي حضيض امرأة فقيرة كما يزعمون . ولقد استطاعت زوجي باخلاصها وحنانها وقلبها وتفكيرها

قادرة على أن تملأ فراغ حياتي فلم اشعر بأي فراغ وكانت تدفعني دائما الي طريق العمل الانساني المنتج

* * *

في يوم جاءني رجل لاأعرفه ودعاني لزيارة مريض فقير مشرف على الهلاك وأفهمني انه عثر عليه ملقي في الطريق يئن ويتوجع أمام داره وان المريض هو الذي طلبني لأنه يتفاءل بي لما سمعه عني وهو مستعد لتقديم الجزاء المادي لقاء اتعابي فاكبرت الرجل ولم أشأ ان اكون اقل منه رحمة وكرما فأفهمته أن واجبي يحتم علي رعاية المريض ويلزمني العناية بالفقير دون أجر ، وقطعنا الطريق في حديث عابر حتى وقفت بنا السيارة امام منزل في حي مجهول لم اعرفه وتقدمني الرجل الى داخل الدار مسرعا ثم سأل خادمه أين المريض ياولد : فأجابه الخادم في عجلة كأنه متأهب لهذا السؤال لقد خرج توا يعدو كالمجنون وقد حاولت أن أمنعه فغلبني وخرج مسرعا . فزمجر الرجل وضرب خادمه لاهماله واعتذر لي في لطف وأفهمني أنه اشد تألما مني إذ كان يسعده ان يقوم بخدمة انسانية

ثم دعاني لتناول قدح من القهوة ريثما يخرج الخادم للبحث

عنه ولماله يجده

فلبيت دعوته وجلسنا نتحدث في مآسي الانسانية وكان الرجل يتنهد في مرارة ولم يحاول أن يرفع نظره في وجهي وقد فسرت ذلك لخجله من تبديد وقتي سدى وعندما تشعبنا الحديث ووصل الى نقائص المجتمع ومساوىء الآدميين وكيف طغى الكذب والنفاق والحسد والضغينة والحقد والانانية على الفضائل العليا . أطرق الرجل صامتا وتنفس الصعداء وتمتم .. انت نبيل يادكتور ولا تستحق إلا كل خير وليت الانسان في مقدوره ان يغالب الأهواء ولا يتأثر بمغريات الحياة حتي يصون نفسه وغيره ليت ذلك في مقدور الانسان

الى هنا قطعت الحديث لاضطراري الى عيادة مريض ورجوته ان يأتى بالمريض الى عيادتى ويترك لى شأنه معتمدا على الله وعلي

وعادت بى السيارة من طريق آخر كثير الالتواء حتى بلغت منزلى وشئت ان أرد مجاملة الرجل فاعتذر مرجئا زيارتى الى وقت آخر ولم يدعني الح عليه بل حرك سيارته واختفى في لمح البصر

ولقد أفزعنى السكون المخيم على داري وغلق جميع النوافذ على

غير العادة وكنت اترقب ان ارى زوجى مهرولة الى .. ولكنها لم تفعل وكان المفروض ان يفتح الباب بمجرد دق الجرس وسكن الباب لم يفتح وقد طال طرقى عليه في شدة .. تذكرت المفتاح الذي معي ففتحت الباب وناديت الخادم فلم يلب النداء فهرولت الى مخدع زوجى ظنا منى انها ناعة

يا للصدمة الهائلة المروعة

(وصمت الطبيب مليا مطرقا في وجوم مخيف وهو يحز على شفتيه ثم اعقب)

لا يمكننى استرجاع هذا الخيال .. انه كالسهم المسموم زوجتي مضطجعة على ظهرها .. وعلى وسادتها (طربوش رجل)

(صمتت الفتاة فتمتمت بصوت مخنوق رباه ماذا تقول)

قال .. رجل ظننته عاشقها جاءها خلسة

وقد استطاع ان يهرب عند ما سمع نفير السيارة بلا ريب ولما كنت أشبه بالموتى لفقد قوتى من تأثير الصدمة لم اتمكن من عمل أى شيء

وسمرت في مكانى وأنا أنظر اليها فى صمت أشبه بسكون من

فقد حسه ووعيه ولم أتنبه الا على أصوات الجيران. لص أم مريض مجنون ؟ لقد قذف بنفسه من نافذة بيت الدكتور وتعالي صوت بالصراخ ـ سيارة من هذه التي تلقفته ؟ ـ وها هي قد اختفت . سألوا الدكتور من يكون ؟ وهرع بعض الجيران يسألني : فقلت مجهول . مجهول أين هو ؟ فقالوا كأنه كان على موعد مع بعض الناس ، لم يكد يرمي بنفسه حتى تلقفته الايدي وحملته في السيارة وقال بعضهم لقد رأيت هذه السيارة عندما خرجت فيها منذ ساعة وقد عدت فيها الآن . اليس كذلك ؟ فتمتمت : أجل . أجل . وتركتهم معتذرا وهرعت الى زوجي ، كيف اتركها نائمة في فراشي بعد أن دنسته ؟ وكيف هان علي ان احتمل رؤيتها مرة أخرى على هذه الصورة ؟؟ لم أكن في حالتي الطبيعية بالتأكيد كنت في حلم مزعج مخيف وأخيراً فقدت قواي ، ودون تردد استودعت صدرها رصاصة العدم في سكون . لم تتحرك ولم تصرخ ، ولم تفتح ناظريها ولم تفه بأي كلمة !

وظللت في موقفي فاقد الرشد والاحساس أشبه بالاموات حتى نبهني الخادم قائلا : سيدي مريض يدعوك ! وظل يردد الكلمة

بلهجته النوبية وهو يتأملني كالمشدوه وأخيراً صرخت في وجهه :
قل له الدكتور ليس هنا . ليذهب الى غيرى ، اقفل العيادة ! لا
تسمح لأي مخلوق مهما كان بالدخول! أخرج المرضى وقل لهم ان
الدكتور قد سافر الى غير عودة ! أفهمت ؟ ورحت أهزه في عنف
وقسوة بغير وعى حتى سقط المسكين على الارض ثم انتصب وخرج
وهو زائغ البصر فاغر فاه لا يجرؤ على الكلام ولا يقوى على الحركة
ثم تذكرت عدم وجود الخادم الخاص بالمنزل وقت دخولى فنادیته وسألته
موقنا بأن سيدته كانت أرسلته الى الخارج لقضاء أي شيء ليخلوها
المنزل مع عشيقها فأجابني الخادم في غير تردد او تفكير او تمهل
جاء رجل وطلب مني ان اذهب الى ميدان المحطة لان حضرتك
تنتظرنى في الكازينو هناك وأفهمني بضرورة الذهاب عاجلا فذهبت
ثم ارتعش الولد وأردف ولكننى بحثت عن حضرتك فلم أجدك
مطلقا وها أنذا عدت فماذا يطلب سيدي ؟ ؟

رجل دعاه وآخر دعانى ، ما هذا السر ؟ اذن كانت دعوة
الرجل نكاية ايضا ، آه لقد تسرعت كان يجب ان اسأل المجرمة قبل
ان تموت . من يكون العشيق و كيف دخل وهل كان يستغفلنى من

زمن بعيد ؟ أكان يعرفها قبل الزواج ؟ وكيف تعرف عليها . آه لو لم أكن احببتها كل الحب وتركت عشيرتي وأهلي من اجلها لركلتها بقدمي كالكلب القذر وتركتها لذئاب الشوارع: ثم تقدمت في جنون نحوها اهزها في عنف وأحركها في قسوة، علها تحيا بضعة دقائق ثم تموت ولتذهب الى جهنم ، ولكن برودة العدم كهربت أعصابي فانتفضت وتراجعت وانا شارد كالمعتوه .وفجأة وقع نظري على هدية ثمينة ملقاة على الارض كأن يداً القتها عمداً تأملتها حتى اهتديت أخيراً الى اسم الصائغ بحروف تكادلا تظهر. كل الخواطر ملكتني حتى ارتميت على المقعد ابكي كالطير المذبوح ، وفجأة دخل خادمي مسرعاً يعلن مقدم أخي الاكبر فارتفع الدم في رأسي أخي يحضر الآن ! ولماذا ؟ انه لم يزرني مطلقا منذ تزوجت : لم يطل بي التفكير لأنه دخل دون استئذان . ولما لمحني كالمحموم وقف أمامي مشدوها قائلا : أخي . أمريض انت ؟ والتفت الى السرير : أم زوجك المريضة ، ولما وقع نظره على الدم الذي يسيل من صدرها صرخ بغير صوت : ما هذا ؟ واقترب منها : قائلا في هلع مقتولة ! ومن الجاني ؟ فنظرت اليه في وجوم وغمغمت مردداً : أنا القاتل !

فترفق بي قائلا : مسكين ، مسكين ، ماذا حدث ؟ لابد انها خانتك ! لا غرابة ، امراة حقيرة . لا تحزن لتذهب مع الشيطان الي جهنم . مع دفن جثتها النتنة لي . وحاول ان يقودني الي غرفة اخري فأبيت ممانعاً تحت تأثير شعور مبهم خاص ، وجلست امام الجثة اتأملها ولست ادري كيف كان شعوري وقتذاك ؟ ؟ كنت فاقد الرشد والادراك لكنني شاعر بكل ما حولي

قام اخي بمهمة الدفن في عجلة وساعده المال الموفور على تنفيذ اوامره دون اي شك او ارتياب ! وكان يتهز فرصة وجومي فيهمس في اذني : كان المفروض ان تفهم من قبل ان هذه المرأة غير جديرة بك . ومرة اخري يقول : اعرفت ان المرأة الفقيرة لا تصلح لرجل غني ! ثم يقول : لقد ضحيت عائلتك وسمعتك في سبيل عاهرة ! لا تحزن . فلتذهب في ذمة الشيطان

لا انكر انني كنت مليء الصدر باحتقارها ومقتها ولكن هذا الكلام كان يلطف هذا الحقد كأنه مرهم يمسح به جرحي . وزاد شكي تعقيداً وغموضاً عندما لمحت أخي يرفع الوسادة في حذر وهو يرقبني وقد غضضت الطرف عنه لأشعره أنني لم أره

ثم تناول ورقة من تحت الوسادة واخفاها . رباه ؟ ما الذى يدور في رأسي ! لقد خطر لي خاطر ولعب الشك بعقلي !

استجمعت قواى وتكلفت البشر ساخراً . لقد استرحت الحمد لله ، لتذهب الى جهنم . وتصنعت الهدوء والاطمئنان فاطمأن أخي وراح يحدثني في شبه دعابة ليرفه عني . رجوته أن ينام معى ليبدد خواطري المزعجة فلم يمانع . مرت الساعات وأنا أضحك فى جنون والله وحده هو العليم بما يجول في نفسى الى أن حان ميعاد النوم فتناومت حتى تأكدت من استغراق أخي في نوم عميق : فتسللت فى حذر ثم فتشت محفظته فوجدت الورقة

زوجي المحبوبة

سيحضر اليك أعز اصدقائى في الوجود . رحبي به وأحسني استقباله ومعاملته ودعيه في المنزل حراً يجلس فى أي غرفة يشاء وينام حيثما أحب . في مخدعك أو مخدعى . ستجدين في قربه أخا لطيفاً وديعاً واقبلي منه هديته واستمتعا بالوقت ريثما احضر فقد يطول بي الغياب

زوجك : مختار

كنت اقرأ والحروف ترقص امام ناظري ، رسالة الي زوجى منى ! الخط يشبه خطي وكذلك التوقيع . كيف حدث هذا ؟

رباه . انقذني بحكمتك ! صعقت وبدأت الخواطر تتوارد امام ذهني أيكون اخي باعث الجاني وسبب هذه النكاية ؟ لكن هذا لا يمكن ابدا . ابدا ، تركت الغرفة لأن مظهره في نومه الهادىء كان يفزعني ويخيفني وينبه جنوني وانزويت في غرفة اخرى مفكراً . لم يكد النهار يظهر حتي تركت منزلي دون علم اخي وهرولت الي السوق ابحث عن الصائغ . وبعد عناء وجدته ولما سألته عن مشتري الهدية ، ذكر لي اسم اخي ! أيمكنك ان تتصوري شعور من يحكم عليه والده بالاعدام لغير ذنب او جريرة ؟

بأقصي سرعة عدت الي منزلي وقد صح عزمي على قتل اخي . أجل لا بد من قتله ، كنت أسابق قوة الموت في الطريق حتي بلغت المنزل فدخلت عليه وقد ملكتني قوى العالمين . ولكنني لم اجده لقد خرج منذ ساعة ! وتقدم مني الخادم قائلا : وجدت هذه الزجاجة ملقاة بجانب السرير . تأملتها فاذا هي سائل مخدر . في التو فهمت لماذا ماتت زوجتي بسرعة إذ كانت في شبه اغماء بسبب هذا المخدر . اذن لم ينل منها المجرم وطره الا بعد تخديرها

رباه . رباه . رباه . أنت وحدك الرحيم ، لقد ماتت شهيدة اذن لم تذنب وكنت المجرم ، رب ، رب رحماك

زوجي بريئة وأنا القاتل ، وأخي قاتلنا . ظل هذا الخاطر مرتسما أمام عيني مسرعا ذهبت الى منزل العائلة مرددا : أخي أخي واستوقفني الخادم قبل ان اصعد الدرج : لقد طلبناك في التليفون فلم نجدك: والدك يطلبك . انه يحتضر : والدي يحتضر ويطلب رؤيتي

ولما رآني الشيخ بكي وأمام جلال الموت تلاشت ارادتي الجامحة ونسيت رغبتي الملحة في الانتقام . وهمس الشيخ أخيرا : اقترب مني ياولدي دعني أقبلك انك أنبل أولادي ، أنت فخري وحسبي تركت لك وحدك كل ثرائي ليحفظ بعيداً عن الدنس اعف عن أخيك لقد أساء التصرف . بحسن نية يا ولدي دفعته كنت أريد أن أزوجك فتاة كريمة لكن أخاك تعجل في غير روية أو تفكير أعف عنه ياولدي . ان الخمر أفسدت قلبه والميسر أفسد عقله اعف عنه وعني وان كنت لم أرغب في موتها كنت اريد أن تسرحها سراحا جميلا وحرماني منك هو الذي دفعني للحرص عليك

اعف عني ياولدي

وخرجت روحه بطيئة كأنها تنتظر مني العفو

ردني رهبة الموت الي عقلي فبكيت والدي ونسيت جرم أخي ولكنني ظللت حتى الآن لا أذكر أبي ولا احب اخي ووقفت

حياتي على ذكرى الشهيدة وتركت الطب ايضا اذ لم تعدلني قوة فكرية أو بدنية استعين بها على القيام بعملي على الوجه الاكمل اذ تنتابني من آن لآن بعض نوبات عصبية واخشى ان تعاودني النوبة وبين يدى مريض فأقضي عليه ولم تعد الحياة الا مرحلة لابد من اجتيازها رغما عني وان كان حبي الفقيراء لم ينقص بل ازداد قوة وايمانا لانني ازددت حبا للشهيدة ولطالما سولت لي نفسي الانتقام من اخي كلما فاض حزني على فراقها الابدى

لكن خيالها كان يتراءى لي من وراء الافق نورانيا قائلا : اعف عنه لقد بعثني الى السماء

منذ ذلك اليوم احبت الفتاة الطبيب حبا قويا اكيدا وبدأ الطبيب يبادلها الحب في طهر وهدوء وقد نسيت الفتاة أوهامها به حتى جاءته يوما فوجدته مهموما محزونا فبادرته ماذا دهاك فلم ينظر اليها وقال لقد رأيتها في المنام ممرضة عني قائلة لقد مت في سبيلك شهيدة فهل يصعب عليك ان تعيش في سبيلي بيدا ؟ وبكى الطبيب وهو يقول سأترك الحياة واختفي في صومعة فتعلقت به الفتاة قائلة وانا أتركني : فغمغم بصوت مخنوق اريد أن أعيش شهيدا فقد ذهبت في سبيلي شهيدة ! ؟